قضايا أدبيّة

الصّفُّ الثّاني عشر

للفرع الأدبيّ

النّاشر
وزارة التّربية والتّعليم
إدارة المناهج والكتب المدرسيّة

يسر إدارة المناهج والكتب المدرسيّة استقبال ملحوظاتكم وآرائكم على هذا الكتاب عن طريق العناوين الآتية:
هاتف: ٨ - ٥ / ٤٦١٧٣٠٤ فاكس: ٤٦٣٧٥٦٩ ص. ب: (١٩٣٠) الرمز البريديّ: ١١١١٨
أو على البريد الإلكترونيّ: ALanguage.Division@moe.gov.jo

قرّرت وزارة التّربية والتّعليم تدريس هذا الكتاب في مدارس المملكة الأردنيّة الهاشميّة جميعها، بناءً على قرار مجلس التّربية والتّعليم رقم (٢٠١٧/١٢) تاريخ ٢٠١٧/١/١٧م ؛ بدءًا من العام الدّراسيّ ٢٠١٧/٢٠١٨م.

الحقوق جميعها محفوظة لوزارة التّربية والتّعليم

ص . ب (١٩٣٠) عمّان – الأردنّ

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة

(٢٠١٧/٣/١٥٧٧)

ISBN: 978 - 9957 - 84 - 779 - 1

مستشار فرق التّأليف: أ. د. خالد عبد العزيز الكركي

أشرف على تأليف هذا الكتاب كل من:

أ.د. فايز عارف القرعان　　د.ياسين يوسف عايش　　أ.د.نايف خالد العجلوني

د.عبد الكريم أحمد الحياري　　أ.د.محمد أحمد المجالي　　أ.د.حسن خميس الملخ

د.أسامة كامل جرادات　　محمد صالح شنيور (**مقررًا**)

وقام بتأليفه كلّ من:

د.عايد عيد أبو سرحان　　هاني لطفي العواملة

د.فاطمة حسين أبو حصوة　　إيناس أحمد أبو عوض

التّحرير العلمي: محمد صالح شنيور　　**التّحرير الفني :** نرمين داود العزة

التّصميم: زياد محمد عدنان مهيار　　**الإنتاج :** خولة أحمد المومني

دقّق الطّباعة : د. عايد عيد أبو سرحان　　**راجعها :** محمد صالح شنيور

الطّبعة الأولى　　**١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م**

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٥
الفصل الدراسيّ الأوّل	
الوحدة الأولى: الأدب في العصر الأندلسي	٨
قضايا من الشعر في العصر الأندلسي	١٠
أولًا: شعر وصف الطبيعة	١٠
ثانيًا: شعر رثاء المدن والممالك	١٤
ثالثًا: شعر المرأة	١٨
رابعًا: الموشّح	٢٢
خامسًا: الشعر الاجتماعي	٢٩
قضايا من النثر في العصر الأندلسي	٣٢
أولًا: الرسائل الأدبية التأليفية	٣٢
ثانيًا: فن القصة الفلسفية	٣٦
الوحدة الثانية: الأدب في العصرين : الأيوبي والمملوكي	٣٩
قضايا من الشعر في العصرين : الأيوبي والمملوكي	٤٠
أولًا: شعر الجهاد في العصرين: الأيوبي والمملوكي	٤٠
ثانيًا: المدائح النبوية	٤٧
قضايا من النثر في العصرين: الأيوبي والمملوكي	٥١
أولًا: أدب الرحلات	٥١
ثانيًا: فن الرسائل	٥٥
ثالثًا: فن الخطابة	٦٠
رابعًا: التأليف الموسوعي	٦٢
الأدب في العصر العثماني	٦٥

الفصل الدراسيّ الثاني

الوحدة الثالثة: الشعر في العصر الحديث ٦٨

مقدمة حول الأدب في العصر الحديث ٦٩

قضايا من الشعر في العصر الحديث ٦٩

أولاً: من اتجاهات الشعر في العصر الحديث ٦٩

الاتجاه الكلاسيكي (مدرسة الإحياء والنهضة) ٦٩

الاتجاه الرومانسي ٧٤

ثانيًا: شعر الثورة العربية الكبرى ٨٩

ثالثًا: شعر التفعيلة ٩٥

رابعًا: شعر المقاومة ١٠٢

الوحدة الرابعة: النثر في العصر الحديث ١٠٩

قضايا من النثر في العصر الحديث ١٠٩

أولًا: المقالة ١١٠

ثانيًا: الخاطرة ١١٤

ثالثًا: القصة القصيرة ١١٨

رابعًا: السيرة ١٢٤

خامسًا: الرواية ١٢٩

سادسًا: المسرحية ١٣٣

قائمة المصادر والمراجع ١٣٨

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدِّمةُ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، يأتي هذا الكتاب « قضايا أدبية» للصف الثاني عشر استكمالاً لكتاب الصف الحادي عشر وبالمنهجية نفسها التي تقوم على تعريف القضية الأدبية، ودراسة الظروف الاجتماعية والتاريخية والسياسية التي أسهمت في تكوينها، والتمثيل عليها من النصوص الأدبية شعرًا أو نثرًا، والحديث عن موضوعاتها ومضامينها، وذكر أبرز أعلامها، ثم استنباط خصائصها الفنية.

وقد ابتعد المؤلفون عن المنهج التاريخي في تقديم القضايا التي تناولها الكتاب، ففي كل عصر درست بعض القضايا الأدبية التي لم تقدم للطلبة قصد الحفظ، وإنما لتكون مواضع للتفكير، ومحاور للنقاش والحوار، ومداخل للبحث والتعلم الذاتي، وهذا من أبرز الأهداف التي يسعى إليها الكتاب؛ إذ وضعت نصوص للدراسة والتحليل، وأخرى للتطبيق والاستقصاء كما تجنبَ المؤلفون الحديث عن القضايا الخلافية والمسائل الفرعية التي يمكن للطالب أن يحصلها في مراحل تعليمية قادمة.

وقد حرص المؤلفون على أن تكون ترجمة الشعراء والكُتّاب موجزةً، تاركين للمعلم والطالب حرية البحث في تفاصيل حياتهم وأعمالهم بالرجوع إلى المصادر المختلفة.

أما النصوص الشعرية والنثرية التي استشهد بها لتمثيل القضايا المعروضة في الكتاب فقد أخذت من مصادرها الأصيلة، وفسرت الكلمات الغريبة في الحاشية، وروعي عند اختيارها أن تكون ذات قيمة فنية كبيرة، وأن تتضمن قيمًا إنسانية ومُثُلًا عليا تعزز في نفوس الطلبة قيم: التسامح، والتعايش، واحترام الآخر، وحرية التعبير، ونبذ التعصب والتطرف، وتعزيز دور المرأة، وحقوق الإنسان.

أما عصور الأدب العربي التي اختيرت منها القضايا الأدبية فهي: العصر الأندلسي؛ ويمثل الأدب في بلاد الأندلس منذ فتحها عام (٩٢ هـ) حتى سقوطها عام (٨٩٧هـ). والدولة الزنكية والأيوبية التي امتدت حتى عام (٦٤٨ هـ). والدولة المملوكية التي تمثل حقبة الحكم المملوكي، وامتدت حتى عام (٩٢٢ هـ).والعصر العثماني؛ الذي بدأ عام (١٢٩٩م)، وامتد حتى عام (١٩٢٣م). والعصر الحديث، الذي بدأ بعد انتهاء الغزو الفرنسي على مصر عام (١٨٠١م) ويمتد حتى وقتنا الحاضر.

وقد جاء هذا الكتاب منسجمًا مع الإطار العام لخطة التطوير التربوي، وفلسفة التربية والتعليم في المملكة الأردنية الهاشمية التي تهدف إلى إكساب الطالب معارف وحقائق وقيمًا ومعلومات ومهارات وقدرات عقلية عُليا، وتكوين اتجاهات إيجابية يمكن للطالب توظيفها في مواقف حياتية مختلفة.

وأخيرًا فإن الأهداف المرجوة من هذا الكتاب لا يمكن تحقيقها إلا بتضافر جهود الأطراف جميعهم من معلمين وطلبة وأولياء أمور، راجين تزويدنا بأية ملاحظة تسهم في تحسين الكتاب.

والله ولي التوفيق

تكون المادة المطلوبة للحفظ من هذا الكتاب على النحو الآتي:

- **الفصل الدراسيّ الأوّل**

١- يحفظ الطلبة خمسة أبيات شعريّة من كلٍّ من:

- شعر وصف الطبيعة في الأندلس
- شعر رثاء المدن والممالك في الأندلس
- شعر المرأة في الأندلس
- الشعر الاجتماعي في الأندلس
- صدى الغزو الصليبي في الشعر
- صدى الغزو المغولي في الشعر
- المدائح النبوية

٢- المطلع والبيت الأول من موشح " يا زمان الوصل" للسان الدين بن الخطيب.

- **الفصل الدراسيّ الثّاني**

١- يحفظ الطلبة خمسة أبيات شعريّة من كلٍّ من:

- الاتجاه الكلاسيكي (مدرسة الإحياء والنهضة)
- الاتجاه الرومانسي
- شعر الثورة العربية الكبرى
- شعر المقاومة

٢- يحفظ الطلبة نموذجين من شعر التفعيلة، وبما لا يقل عن ثمانية أسطر متتالية في كل نموذج.

الفصل الدراسيّ الأوّل

الوحدة الأولى

١

الأدب في العصر الأندلسي

النتاجات الخاصة بالوحدة

يتوقع من الطالب بعد دراسة الوحدة أن:

- يتعرف أهم أغراض الشعر في العصر الأندلسي.
- يتعرف أشهر شعراء العصر الأندلسي، ويقرأ نماذج من أشعارهم.
- يتعرف مظاهر شعر الطبيعة في الأندلس.
- يتبين مظاهر شعر رثاء المدن والممالك، ويعلل سبب التوسع فيه.
- يتبين أثر التفاعل الاجتماعي في الشعر الأندلسي.
- يسمي أشهر شاعرات الأندلس، ويقرأ نماذج من أشعارهنّ.
- يتعرف بناء الموشح، وأشهر الوشاحين، ويستنتج خصائصه الفنية.
- يحلل نصوصًا من الشعر الأندلسي، ويتعرف مضامينها، ويستنتج خصائصها الفنية.
- يفسر العلاقة بين القضية الأدبية والأحداث الاجتماعية والتاريخية.
- يمتلك قيمًا واتجاهات إيجابية؛ مثل : التسامح الديني، وتقدير دور المرأة، وتقدير الشعراء.
- يتعرف فنونًا نثريةً في العصر الأندلسي: (الرسائل الأدبية التأليفية، والقصة الفلسفية) ومضامينها، وخصائصها الفنية.
- يتعرف أشهر كُتّاب العصر الأندلسي.

مقدمة تاريخية موجزة

أطلق العرب اسم الأندلس على شبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا والبرتغال) التي تقع جنوبي غرب قارة أوروبا، ويحدّها من الغرب المحيط الأطلسي، ومن الجنوب والشرق البحر الأبيض المتوسط، ومن الشمال بلاد الفرنجة (فرنسا). وقد حكمها المسلمون ثمانية قرون منذ فتحها بقيادة طارق ابن زياد وموسى بن نصير عام (٩٢هـ) حتى سقوط غرناطة عام (٨٩٧هـ).

تفوق الأندلسيون في مختلف العلوم، وأجادوا معظم الفنون، وأبدعوا أدبًا غزيرًا، وتركوا حضارة عظيمة ما تزال آثارها شاهدة على عظمتهم، فلا نكاد نجد عِلْمًا أو فنًّا إلا وللأندلسيين يدٌ فيه.

أمّا مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس والدول التي تعاقبت عليه فقد قسمها المؤرخون على النحو الآتي:

- عهد الفتح والولاية (٩٢هـ – ١٣٨هـ): حيث استُكمل فتح الأندلس، وحكم الأندلس في هذه الحقبة ولاة تُعيّنهم الدولة الأموية في المشرق ويتبعون لها.
- عهد الإمارة والخلافة (١٣٨هـ – ٤٢٢هـ): تبدأ هذه الحقبة بدخول عبد الرحمن بن معاوية (صقر قريش) الأندلس وتأسيسه دولة أموية مستقلة عن المشرق.
- عهد ملوك الطوائف (٤٢٢هـ – ٤٨٤هـ): قامت في هذه الحقبة عدة ممالك ودول على أنقاض الدولة الأموية.
- عهد المرابطين (٤٨٤هـ – ٥٤٠هـ): شهدت هذه الحقبة دخول يوسف بن تاشفين الأندلس والقضاء على ملوك الطوائف.
- عهد الموحدين (٥٤٠هـ – ٦٣٣هـ): أصبحت الأندلس في هذه الحقبة ولاية تابعة للمغرب العربي.
- عهد بني الأحمر (٦٣٣هـ – ٨٩٧هـ): وكانت هذه الحقبة نهاية الحكم العربي الإسلامي في الأندلس.

تكوّن المجتمع الأندلسي من العرب والبربر والإسبان والصقالبة، وسادت الديانات السماوية الثلاث جنبًا إلى جنب، وتفاعلت هذه المكونات وجعلت المجتمع الأندلسي مجتمعًا متميزًا في بنائه الحضاري، ومثالًا يُحتذى في التعايش الاجتماعي والتسامح الديني.

وقد تميزت الأندلس بجمال طبيعتها، وتنوع تضاريسها، واعتدال مناخها، وغزارة مياهها، وخصوبة أرضها، وخضرتها الدائمة؛ فقد أُطلق عليها (جَنّة الله على أرضه) و(الفردوس المفقود)، وكان لهذه البيئة وطبيعة المجتمع الأندلسي أثرهما البالغ في الأدب الأندلسي.

قضايا من الشعر في العصر الأندلسي

تطورت مضامين الشعر وأساليبه في العصر الأندلسي؛ بفعل مجموعة من العوامل السياسية والاجتماعية والبيئية. فنتيجة لكثرة الأحداث السياسية وتنوّعها، وجمال البيئة الأندلسية وتنوع تضاريسها، عاش الناس حياة حرية وانفتاح واندماج بالثقافات والشعوب الأخرى، وتأثر الشعر الأندلسي بذلك شكلًا ومضمونًا.

ونقف في هذا العصر على عدد من الجوانب الأدبية التي تتصل بالشعر الأندلسيّ وكان للواقع البيئي والاجتماعي والسياسي دور في بروزها، وهي: شعر وصف الطبيعة، وشعر رثاء المدن والممالك، وشعر المرأة، والموشح، والشعر الاجتماعي.

أولًا: شعر وصف الطبيعة

استأثرت الطبيعة باهتمام الشعراء الأندلسيين؛ لجمالها المتمثل في تنوع التضاريس، واعتدال المناخ، وغزارة المياه، وخصوبة الأرض، وخضرتها الدائمة. وقد صقل هذا الجمال ذوق الأندلسي وجعله رقيقًا سلسًا، فكان الإنتاج الشعري في هذا السياق غزيرًا رقيقًا.

ومن أبرز مظاهر شعر وصف الطبيعة في الأندلس ما يأتي:

١- وصف البيئة الأندلسية على نحو عام، وبيان محاسنها والتغني بجمالها، يقول ابن سَفَر المَرينِيّ(١) متغنيًا بالأندلس وجمالها:

فـي أَرْضِ أَنْـدَلُسٍ تَـلْـتَـذُّ نَعْـمـاءُ ... وَلا يُـفـارِقُ فـيـهـا الـقَلْبَ سَرّاءُ

وَكَيْـفَ لا يُبْهِجُ الأَبْصارَ رُؤْيَتُهـا ... وَكُلُّ رَوْضٍ بِها في الوَشْيِ صَنْعاءُ (٢)

أَنْهارُهـا فِضَّةٌ وَالمِسْـكُ تُرْبَتُهـا ... وَالخَزُّ رَوْضَتُها وَالدُّرُّ حَصْبـاءُ (٣)

قَدْ مُيِّزَتْ مِنْ جِهاتِ الأَرْضِ حينَ بَدَتْ ... فَريـدةً وتَوَلّـى مَيْزَها المـاءُ

لِذاكَ يَبْسُمُ فيها الزَّهْرُ مِـنْ طَـرَبٍ ... والطَّيْرُ يَشْدو وَلِلأَغْصانِ إِصْغاءُ

---

(١) أبو الحسن محمد بن سفر المريني، من شعراء الأندلس في عصر الموحدين في القرن السادس الهجري.

(٢) الوشي: نقوش الثوب، فالزهور والورود تشبه النقوش في الثوب. صنعاء: عمل متقن ومحكم.

(٣) الخزّ: الحرير. حصباء: حجارة صغيرة.

٢- وصف الحدائق والرياض والزهور كالنرجس والأقحوان والسوسن والبهار[١] والياسَمين، يقول ابن النَّظّام الأندلسي [٢] واصفًا زهر البهار:

وَقَدْ بَدَتْ لِلْبَهارِ أَلْوِيَـــةٌ تَعْبَقُ مِسْكًا طُلوعُها عَجَبُ
رُؤوسُها فِضَّةٌ مُوَرِّقَـــةٌ تُشْرِقُ نورًا عُيونُها ذَهَـــبُ
فَهْوَ أَميرُ الرِّياضِ حَفَّ بِهِ مِنْ سائِرِ النَّوْرِ عَسْكَرٌ لَجِبُ [٣]

ويقول جَعْفَر المُصْحَفِي [٤] في وصف سوسنة:

يا رُبَّ سَوْسَنَةٍ قَـــدْ بِتُّ أَلْثُمُها وَما لَها غَيْرُ طَعْمِ المِسْكِ مِنْ ريقِ
مُصْفَرَّةُ الوَسْطِ مُبْيَضٌّ جَوانِبُها كَأَنَّها عاشِقٌ فـــي حِجْرِ مَعْشوقِ

٣- وصـف المائيـات كالأنهار والبحـار والسواقي والبـرك، فالأندلس شبه جزيـرة تحيط بها المياه من جهـات ثلاث، وتكثر فيها الأنهار، فأثارت خواطـر الشعراء وأبدعوا في وصفها وتصويرهـا، يقول ابن حَمْديس الصقلّـي [٥] واصفًا نافورة الأُسود في ساحة قصر الحمراء، والماء يتدفق من أفواهها:

وَضَراغِمٍ سَكَنَـتْ عَرينَ رِئاسَةٍ تَرَكَتْ خَريـرَ الماءِ فيهِ زَئيـــرا
فَكَأَنَّما غَشّى النُّضارُ جُسومَها وَأَذابَ فـــي أَفْـــواهِها البَلّـورا [٦]
أُسُـــدٌ كَأَنَّ سُكونَها مُتَحَـــرِّكٌ في النَّفْسِ لَوْ وَجَدَتْ هُناكَ مُثيرا
وَتَخالُها وَالشَّمْسُ تَجْلو لَوْنَها نارًا وَأَلْسُنَها اللَّواحِسَ نُـــــورا [٧]

٤- مناجاة الطبيعة وبثّ الهموم والمشاعر إليها وجعْلها تشارك الناس أفراحهم وأتراحهم، يقول ابن خَفاجَة [٨] مخاطبًا الجبل:

---

(١) البهار: زهرة طيبة الرائحة، تنبت في فصل الربيع، ويقال لها: العَرار.
(٢) عبد الملك بن عبد الحكم بن محمد، أبو بكر، يعرف بابن النظام، أديب وشاعر.
(٣) النَّور: الزهر الأبيض. لجب: من لجب الموج فهو لجبٌ أي مضطرب، والمقصود كثرة الزهر الأبيض الذي يحيط بزهرة البهار.
(٤) أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي من مدينة بلنسية، حاجب الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله، (ت٣٧٢هـ).
(٥) أبو محمد عبد الجبار الصقلي، ولد ونشأ في صقلية، ثم رحل إلى الأندلس، (ت٥٢٧ هـ).
(٦) النضار: الذهب الخالص. البلور: حجر أبيض شفاف.
(٧) اللواحس: مفردها اللاحس، والمعنى أن المياه المندفعة من أفواه الأسود مثل الألسنة المتدلية.
(٨) إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي، من الكتّاب البلغاء، غلب على شعره وصف الرياض ومناظر الطبيعة، (ت ٥٣٣هـ).

وَأَرْعَـــنَ طَمّاحِ الذُّؤابَةِ بـاذِخٍ يُطاوِلُ أَعْنانَ السَّماءِ بِغـــارِبِ (١)
يَسُدُّ مَهَبَّ الرّيحِ مِنْ كُلِّ وِجْـهَةٍ وَيَزْحُـمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بِالْمَناكِـــبِ (٢)
وَقورٍ عَلـــى ظَهْرِ الفَلاةِ كَـأَنَّهُ طَوالَ اللَّيالي مُفْكِرٌ في العَواقِبِ (٣)
أَصَخْتُ إِلَيْهِ وَهْوَ أَخْرَسُ صامِتٌ فَحدَّثَني لَيْلُ السُّرَى بِالعَجـائِبِ (٤)

الخصائص الفنية لشعر وصف الطبيعة

تتلخص الخصائص الفنية لشعر وصف الطبيعة في الأندلس في أنه:

١– يستخدم التشخيص، وذلك بإبراز الطبيعة في صور شخوص حية وبث الحياة فيها، فابن سفر المريني جعل الزهر يبسم من الطرب وأغصان الأشجار تصغي إلى شدو الطير، وخاطب ابن خفاجة الجبل كأنه إنسان.

٢ – يبتعد عن الألفاظ الغريبة، وينحو إلى المعاني السهلة الواضحة المستمدة من البيئة الأندلسية التي تكثر فيها مظاهر الطبيعة الخلابة من: أنهار، وأشجار، وورود، وغيرها.

٣– يتصف بدقة التصوير وجماله، كما في وصف زهر البهار لابن النَّظّام الأندلسي ووصف نافورة الأسود لابن حَمْديس الصقلّي.

---

(١) أرعن: يقصد الجبل المرتفع. الذؤابة: الخصلة من الشعر، ويقصد أن الجبل له قمة شديدة الارتفاع. الغارب: الكاهل، والمقصود به أعلى الجبل.

(٢) المناكب: مفردها مَنكِب، وهو ناحية الشيء وجانبه.

(٣) الفلاة: الصحراء الواسعة.

(٤) أصخت: استمعت.

الأسئلة

١– بين أسباب ازدهار شعر وصف الطبيعة في الأندلس.

٢– استنتج المظهر الذي يمثله كل بيت مما يأتي من مظاهر شعر وصف الطبيعة:

أ – البَحْرُ أَعْظَمُ مِمّا أَنْتَ تَحْسَبُهُ مَنْ لَمْ يَرَ البَحْرَ يَوْمًا ما رَأى عَجَبا

ب – يا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ لله دَرُّكُمُ ماءٌ وَظِلٌّ وَأَشْجارٌ وَأَنْهارُ

جـ – عَلى نَرْجِسٍ مِثْلَ الدَّنانيرِ بُدِّدَتْ عَلى بُسطِ خَزٍّ وَالبَهارُ دَراهِمُ

٣– اقرأ النص الآتي، ثم أجب عن الأسئلة التي تليه:

يقول ابن الأَبّار القُضاعِيّ [١] في وصْف نهر:

وَنَهْرٍ كَما ذابَتْ سَبائِكُ فِضَّةٍ حَكى بِمَحانيهِ انعِطافَ الأَراقِمِ[٢]

إِذا الشَّفَقُ اسْتَوْلى عَلَيْهِ احْمِرارُهُ تَبَدّى خَضيبًا مِثْلَ دامي الصَّوارِمِ[٣]

وَتُطْلِعُهُ في دُكْنَةٍ بَعْدَ زُرْقَةٍ ظِلالٌ لِأَدْواحٍ عَلَيْهِ نَواعِمِ[٤]

أ – ما المظهر الذي تمثله الأبيات السابقة من مظاهر شعر وصف الطبيعة؟

ب– مثّل من الأبيات السابقة على الخصيصتين الفنيتين الآتيتين:

١. التشخيص والتشبيه.

٢. المعاني المستمدّة من البيئة الأندلسية.

جـ– وظّف الشاعر عنصر اللون في دقة التصوير وجماله، وضح ذلك.

النشاط

● يقول شوقي ضيف: «إن شعراء الأندلس استبدلوا شعر وصف الطبيعة بالمقدمات الطللية الغزلية»، ناقش هذا القول مع معلمك وزملائك.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبّار، له مؤلفات كثيرة، (ت٦٥٨هـ).

(٢) الأراقم: الأفاعي وذكور الحيات.

(٣) خضيبًا: ملوّنًا. الصوارم: السيوف.

(٤) أدواح: الشجر العظيم.

ثانيًا: شعر رثاء المدن والممالك

اشتهر شعر رثاء المدن والممالك بعد حالة الضعف والانقسام والتفكك التي شهدها الحكم الإسلامي إبان عصر ملوك الطوائف، والتقلبات السياسية التي سادت ذلك العصر، واشتداد المواجهة بين المسلمين وأعدائهم، وما تبع ذلك من سقوط الحواضر الإسلامية مدينة تلو الأخرى، ثم سقوط الممالك والإمارات الأندلسية، وانتهاءً بسقوط الأندلس كاملة.

وقد واكب الشعر الأندلسي هذه الأحوال، فجادت قرائح الشعراء بقصائد طوال تنبئ عن حسرة وألم شديدين على مدن ذاهبة، وممالك زائلة؛ حتى غدا رثاء المدن والممالك غرضًا شعريًّا قائمًا بذاته.

ومن مظاهر شعر رثاء المدن والممالك:

١ – تصوير ما حلّ بالمدن من خراب ودمار، وما نزل بأهلها من كرب وضيق، يقول ابن خفاجة في رثاء مدينته الجميلة (بَلَنْسِية) التي سقطت عام (٤٨٨هـ):

عاثَتْ بِساحَتِكِ العِدا يـــــا دارُ ... وَمَحا مَحاسِنَكِ البِلـــى وَالنّارُ

وَإِذا تَرَدَّدَ فـــــي جَنابِكِ ناظِرٌ ... طالَ اعْتِبـــــارٌ فيكِ وَاسْتِعْبارُ

أَرْضٌ تَقاذَفَتِ الخُطـــوبُ بِأَهْلِها ... وَتَمَخَّضَتْ بِخَرابِها الأَقْـــدارُ(١)

كَتَبَتْ يَدُ الحَدَثانِ في عَرَصـــاتِها ... «لا أَنْتِ أَنْتِ وَلا الدِّيـارُ دِيـارُ»(٢)

٢ – الموازنة بين ماضي المدن وحاضرها، يقول ابن اللَّبّانَة (٣) في رثاء دولة بني عَبّاد في (إِشْبيلْيَة) مقارنًا بين حال المدينة أيام حكم المُعْتَمِد بن عَبّاد (٤) وبعد سقوطها:

تَبْكـي السَّماءُ بِمُزْنٍ رائِـحٍ غـــادِ ... عَلـى البَهاليلِ مِـنْ أَبْناءِ عَبّـــادِ (٥)

عَلى الجِبالِ الَّتي هُدَّتْ قَواعِـــدُها ... وَكانَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذاتَ أَوْتـــادِ

---

(١) الخطوب: المكاره. تمخضت: أتت بها.

(٢) الحدثان: النوائب والحوادث. عرَصاتها: ساحاتها. اقتبس الشاعر عجز البيت من قصيدة لأبي تمام الطائي.

(٣) أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي المعروف بابن اللبانة أشهر شعراء عصره، كان مقرَّبًا من ملوك الطوائف، وكان يكثر من مدحهم لا سيما المعتمد بن عباد، (ت٥٠٧هـ).

(٤) ثالث ملوك بني عبّاد في الأندلس، (ت٤٨٨هـ).

(٥) المزن: السحاب يحمل الماء. البهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الشريف الجامع لصفات الخير.

وَكَعْبَةٌ كانَتِ الآمالُ تَعْمُرُهـا فَاليَـوْمَ لا عاكِفٌ فيها وَلا بـادِ
يا ضَيْفُ أَقْفَرَ بَيْتُ المَكْرُماتِ فَخُذْ في ضَمِّ رَحْلِكَ وَاجْمَعْ فُضْلَةَ الزّادِ

٣ – ذكْر أسباب الهزيمة من ضعف المسلمين وانقسامهم، وابتعادهم عن تعاليم الدين الحنيف، يقول ابن الجدّ [١] في وصف ما آل إليه حال ملوك الطوائف بسبب سوء تدبيرهم:

أَرى المُلـوكَ أَصابَتْهُمْ بِأَنْدَلُسٍ دَوائِرُ السّـوءِ لا تُبْقي وَلا تَذَرُ
ناموا وَأَسْرى لَهُمْ تَحْتَ الدُّجى قَدَرٌ هَوى بِأَنْجُمِهِمْ خَسْفًا فَما شَعَروا

٤ – الاستنجاد بالمسلمين واستنهاض هممهم ودعوتهم إلى نصرة إخوانهم:

يقول ابن الأَبّار القُضاعِيّ بعد سقوط مدينة (بَلَنْسِيَة)، وقد أرسل إلى أبي زكريا بن حفص سلطان تونس مستنجدًا لنصرة الأندلس:

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللهِ أَنْدَلُسا إِنَّ السَّبيلَ إِلى مَنْجاتِها دَرَسا
وهَبْ لَها مِنْ عَزيزِ النَّصْرِ ما الْتَمَسَتْ فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسا

ولعلّ نونية أبي البَقاء الرّنْدِي[٢] أشهر ما قيل في رثاء المدن والممالك في الأندلس؛ فهي لا ترثي مدينة بعينها كالنماذج السابقة بل ترثي الأندلس في مجموعها مدنًا وممالك، وتعبر عن تجربة حقيقية عاشها الشاعر، وبدأها بحكمة عامة، ثم صور ما حلّ بالأندلس من خطوب جليلة لا عزاء فيها ولا تأسّيَ دونها، يقول في نونيّته:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذا مـا تَـمَّ نُقْصانُ فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيْشِ إِنْسـانُ
هِيَ الأُمورُ كَما شاهَدْتَها دُوَلٌ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أَزْمـانُ
وَهذِهِ الدّارُ لا تُبْقي عَلى أَحَدٍ وَلا يَدومُ عَلى حالٍ لَها شـانُ
فَجائِعُ الدَّهْرِ أَنْواعٌ مُنَوَّعَةٌ وَلِلزَّمـانِ مَسَرّاتٌ وَأَحْـزانُ
وَلِلْحَوادِثِ سُلْوانٌ يُسَهِّلُها وَمـا لِما حَلَّ بِالإِسْلامِ سُلْـوانُ
تِلْكَ المُصيبَةُ أَنْسَتْ ما تَقَدَّمَها وَما لَها مَعَ طولِ الدَّهْرِ نِسْيانُ
يا مَنْ لِذِلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ أَحالَ حالَهُمُ جَوْرٌ وَطُغْيانُ

---

(١) أبو الحسن يوسف بن محمد بن الجدّ الفهري، من شعراء عصر الطوائف في الأندلس، (ت٥٣٢هـ).
(٢) أبو البقاء صالح بن يزيد الرندي الأندلسي، من أبناء رُندة في مدينة مالقة بالأندلس، (٦٨٤هـ).

الخصائص الفنية لشعر رثاء المدن والممالك

من النماذج السابقة نتبين أن شعر رثاء المدن والممالك:

١- يتصف بحرارة العاطفة وعمق الشعور بالأسى والحزن عند الحديث عما حل بالمدن والموازنة بين ماضيها وحاضرها.

٢- تغلب عليه النزعة الدينية والحكمة النابعة من التجارب المريرة، ويتجلى ذلك في أبيات أبي البقاء الرندي حين يتحدث بحكمة عن تداول الأيام وتبدل الحال وتقلب الزمان.

٣- يكثر من استخدام أساليب الإنشاء الطلبي، مثل: النداء، والاستفهام للتحسر والتفجع.

الأسئلة

١ – وضّح أبرز مظاهر شعر رثاء المدن والممالك.

٢ – علل ما يأتي:

أ – توسّع شعراء الأندلس في رثاء المدن والممالك حتى أصبح عندهم غرضًا شعريًّا قائمًا بذاته.

ب– يتصف شعر رثاء المدن والممالك بحرارة العاطفة.

٣– وازن بين حال مدينة (إشبيلية) أيام حكم المعتمد بن عبّاد وبعد سقوطها، كما بينها الشاعر ابن اللّبّانة.

٤– يقول ابن عبدون [١] في رثاء دولة بني المُظَفَّر في (بَطَلْيُوس):

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَيْنِ بِالأَثَـــرِ ... فَما البُكاءُ عَلى الأَشْباحِ وَالصُّـــوَرِ

فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وَإِنْ أَبْدى مُسالَمَةً ... وَالسُّودُ وَالبِيضُ مِثْلُ البِيضِ وَالسُّمُرِ

بَني المُظَفَّرِ وَالأَيّامُ ما بَرِحَـــتْ ... مَراحِلٌ وَالوَرى مِنْها عَلى سَفَـــرِ

أَيْنَ الإِبـاءُ الّـذي أَرْسَـوا قَواعِـدَهُ ... عَلى دَعـائِـمَ مِـنْ عِـزٍّ وَمِـنْ ظَـفَـرِ

أَيْنَ الوَفاءُ الّذي أَصْفَـوا شَـرائِـعَـهُ ... فَلَمْ يَـرِدْ أَحَـدٌ مِـنْـهُـمْ عَـلـى كَـدَرِ

كانـوا رَواسِيَ أَرْضِ اللهِ مُذْ نَـأَوا ... عَنْها اسْتَطارَتْ بِمَنْ فيها وَلَمْ تَقِـرِ

بعد إنعام النظر في النص السابق أجب عما يأتي:

أ – استنتج المظهر الذي يمثله النص.

ب– مثل من النص على ما يأتي:

١. توظيف الحكمة.

٢. حرارة العاطفة وعمق الشعور بالأسى والحزن.

٥– اشتهرت قصيدة أبي البَقاء الرّنْدي في رثاء المدن والممالك أكثر من غيرها، بين سبب ذلك.

---

(١) ذو الوزارتين: أبو محمد، عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري، كان كاتبًا مترسلًا وعالـمًا بالتاريخ والحديث، (ت ٥٢٩هـ).

ثالثًا: شعر المرأة

حظيت المرأة الأندلسية بمكانة كبيرة، وشاركت في الحياة العامة، وتولّت مناصب مختلفة، فكانت كاتبة، وعالمة، وشاعرة، إذ كانت نُضار بنت أبي حَيّان الغرناطيّ (١) عالمة في اللغة والنحو والتفسير ولها مجلس علم، وكانت ولّادة بنت المستكفي(٢) تجمع الأدباء في مجلسها لدراسة الشعر ونقده. كما نالت المرأة الأندلسية قسطًا كبيرًا من الحرية، وكان لكثير من النساء نفوذ سياسي مثل: مريم أم إسماعيل (٣)، وأسماء بنت غالب (٤).

ومن الشاعرات الأندلسيّات المُجيدات أيضًا: حمدة بنت زياد المؤدِّب (٥)، وحُسّانة التّميميّة (٦)، وأم الهَناء بنت القاضي (٧)، وحَفصة الرَّكونية (٨)، وتَميمة بنت يوسف (٩).

ومن الأغراض الشعرية التي نظمت فيها المرأة:

١- المدح

للتعبير عن مشاعر الودّ والإخلاص، أو من أجل تحقيق رغبة ذاتية مثل رفع ظلامة أو طلب نجدة، ومن ذلك قول حُسّانة التَّميميّة في مدح الحكم بن الناصر بعد أن حقق طلبها ورفع ظلامتها:

ابْنَ الهِشامَيْنِ خَيْرَ النّاسِ مَأْثُرَةً ... وَخَيْرَ مُنْتَجَعٍ يَوْمًا لِرُوّادِ(١٠)

إنْ هَزَّ يَوْمَ الوَغى أَثْناءَ صَعْدَتِهِ ... روى أَنابيبَها مِنْ صرْفِ فِرْصادِ(١١)

قُلْ لِلإمامِ أَيا خَيْرَ الوَرى نَسَبًا ... مُقابَلًا بَيْنَ آباءٍ وَأَجْدادِ

---

(١) عاشت في غرناطة، (ت ٧٣٠هـ).

(٢) أميرة أندلسية، ابنة الخليفة المستكفي بالله، اشتهرت بالفصاحة والشعر، (ت ٤٨٤هـ).

(٣) مريم بنت محمد زوجة سلطان غرناطة يوسف بن نصر، أسهمت في تثبيت حكم ابنها إسماعيل، (ت ٧٧٢هـ).

(٤) زوجة المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد بالله، (ت ٣٨٤هـ).

(٥) هي حمدة بنت زياد بن تقي، بنت المؤدب، من شاعرات غرناطة في عصر ملوك الطوائف، لقبت بخنساء المغرب لأنها قالت شعرًا في الرثاء وكانت مُجيدة فيه، (ت ٦٠٠هـ).

(٦) حسانة بنت عاصم التميمي، شاعرة أندلسية ولدت سنة (٧٥٨هـ).

(٧) أم الهناء بنت أبي محمد بن غالب بن عطية المحاربي، ابنة المفسر المشهور ابن عطية، (ت ٥٦٨هـ).

(٨) حفصة بنت الحاج الرَّكوني، شاعرة وأديبة، نسبت إلى بلدة ركونة (أوركانة) التي تقع غربي بلنسية، (ت٥٨٦هـ).

(٩) تميمة بنت يوسف بن تاشفين، (ت ٥٠٧هـ).

(١٠) مأثرة: مكرمة متوارَثة. المنتجَع: المكان يطلب فيه الكلأ، والمقصود أن في القصد إلى الأمير خير.

(١١) الصعدة: القصبة أو القناة المستوية. فرصاد: صبغ أحمر والمقصود الدم، والشاعرة هنا تمدح الأمير بأنه شجاع في ساح الوغى.

جَوَّدْتَ طَبْعي وَلَمْ تَرْضَ الظُّلامَةَ لي فَـهـاكَ فَـضْـلُ ثَـنـاءٍ رائِـحٍ غـادِ
فـإِنْ أَقَـمْـتُ فَـفـي نُـعْـمـاكَ عاطِفَـةً وَإِنْ رَحَلْتُ فَقَـدْ زَوَّدْتَني زادي

٢- الوصف

وصفت حمدة بنت زياد المؤدِّب (وادي آش)(١) وصفًا بارعًا دقيقًا حين جلست تتفيأ ظلاله وتبدو الحصى فيه كأنه- لصفائه- جواهر، فتظن الحسان الناظرات فيه كأن عقودهن انفرطت فيه فيسرعن إلى تلمس عقودهن، تقول:

وَقـانا لَـفْـحَـةَ الرَّمْـضـاءِ وادٍ سَقـاهُ مُـضاعَـفُ الـغَيْثِ العَميمِ (٢)
حَلَلْنا دَوْحَـهُ فَحَنا عَلَيْنـا حُنُوَّ المُرْضِعاتِ عَلى الْفَطيمِ
وَأَرْشَفَـنـا عَلـى ظَمَأٍ زُلالاً يَـرُدُّ الـرّوحَ لِلْقَلْبِ السَّقيمِ
يَصُـدُّ الـشَّمْسَ أَنّى واجَهَتْـنا فَيَحْجُبُها وَيَأْذَنُ لِلنَّسيمِ
يَروعُ حَصاهُ حالِيَةَ العَـذارى فَتَلْمَسُ جانِبَ الْعِقْدِ النَّظيمِ (٣)

٣- الفخر

افتخرت المرأة الأندلسية – خاصة من كانت مقربة من الملوك والأمراء والوزراء – بحسبها ونسبها وجمالها وعفتها ومهاراتها، فالفخر متنفس لها لتعبر عن كبريائها والمباهاة بنفسها. قالت تَميمة بنت يوسف مفتخرة بنفسها وأنه يصعب الوصول إليها أو أن تنزل هي من مكانها السامي:

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُها في السَّماءِ فَعَزِّ الفُؤادَ عَزاءً جَميلا
وَلَنْ تَسْتَطيعَ إِلَيْهِ الصُّعودَ وَلَنْ تَسْتَطيعَ إِلَيْكَ النُّزولا

ومن ذلك افتخار حَفصة الرّكونية بخطّها حين سألتها امرأة من أعيان غرناطة أن تكتب لها شيئًا بخطّها فكتبت إليها:

يا رَبَّةَ الحُسْنِ بَلْ يا رَبَّةَ الكَـرَمِ غُضّي جُفونَكِ عَمّا خَطَّهُ قَلَمي
تَصَفَّحيهِ بِلَحْظِ الوُدِّ مُنْعِمَـةً لا تَحْفُلي بِرَديءِ الخَطِّ وَالكَلِمِ

---

(١) واد في بلدة قرب غرناطة.
(٢) الرمضاء: شدة الحر.
(٣) حالية: المرأة التي تلبس الحلي.

الخصائص الفنية لشعر المرأة

من النماذج السابقة يظهر أن شعر المرأة الأندلسية:

١- جاء في معظمه قصائد قصيرة ومقطوعات تتصف بوحدة الموضوع.

٢- يتصف التصوير فيه ببساطته وجماله، وخلوه من التكلف، فصوره تخضع لعاطفة المرأة المتدفقة، ويظهر ذلك في قول حمدة بنت زياد المؤدِّب حين وصفت (وادي آش) وشبهت ظلال الأشجار في الوادي بحنو الأم المرضع على طفلها الفطيم، وكما في أبيات تميمة بنت يوسف التي شبهت فيها نفسها بالشمس.

الأسئلة

١- وضح من خلال ما درست مكانة المرأة في الأندلس.

٢- استنتج الغرض الشعري الذي يمثله كلٌّ مما يأتي:

أ - قالت ولّادة بنت المستكفي:

أَنا وَاللهِ أَصْلُحُ لِلمَعالي وَأَمْشي مِشْيَتي وَأَتيهُ تيها

ب- قالت حُسّانة التميمية:

إِنّي إِلَيْكَ أَبا العاصي مُوَجَّعَـــةٌ أَبا الحُسَيْنِ سَقَتْهُ الواكِفُ الدِّيَمْ

أَنْتَ الإِمامُ الَّذي انْقادَ الأَنامُ لَهُ وَمَلَّكَتْهُ مَقاليدُ النُّهى الأُمَـــــمُ

٣- اقرأ النص الآتي، ثم أجب عن الأسئلة التي تليه:

حين علمت ولّادة بنت المستكفي أن ابن زيدون مال إلى امرأة غيرها كتبت إليه:

لَوْ كُنْتَ تُنْصِفُ في الهَوى ما بَيْنَنا لَمْ تَهْوَ جارِيَتي وَلَـــمْ تَتَخَيَّـــرِ

وَتَرَكْـــتَ غُصْنًا مُثْمِرًا بِجَمالِـهِ وَجَنَحْتَ لِلغُصْنِ الَّذي لَـمْ يُثْمِـرِ

وَلَقَـــدْ عَلِمْتَ بِأَنَّني بَـدْرُ السَّمـا لكِنْ دُهيتَ لِشِقْوَتـي بِالمُشْتَـري

أ - ما الغرض الشعري الذي تمثله الأبيات السابقة؟

ب- مثّل من الأبيات السابقة على جمال التصوير.

رابعًا: الموشّح

١- مفهوم الموشح

الموشح لغة: من الوشاح، وهو حزام مرصّع باللؤلؤ والجوهر المنظوم تتزين به المرأة[١].

أما اصطلاحًا: فكلام منظوم على قوالب محددة وأوزان مختلفة.

وترجع تسميته بذلك إلى ما فيه من زخرفة وترصيع وتزيين وتناظر وصنعة، فكأنه شُبِّه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجوهر.

٢- نشأة الموشح وعوامل ظهوره

يرى بعض الدارسين أن ظهور الموشح كان نتيجة مجموعة من العوامل يعود بعضها إلى جذور مشرقية تجلّت في محاولات بعض شعراء العصر العباسي، مثل: بشّار بن بُرْد، ومُسْلِم بن الوليد، وأبي نُواس، وأبي العلاء المَعَرّيّ، الخروج على بنية القصيدة العربية والثورة على القديم. ويمكن القول: إن الموشحات التي وصلت إلينا أندلسية المنشأ، وذات صلة بالحياة الاجتماعية والبيئة الأندلسية.

ومن عوامل ظهور الموشحات:

أ - التجديد الموسيقي الذي أدخله زِرْياب [٢] وتلاميذه في الألحان والغناء، وما اشتمل عليه هذا التجديد من تنويع في الإيقاع والنغم، وقد اقتضى التجديد في الموسيقا والتنويع في الغناء التجديد في بنية القصيدة؛ ما ساعد على ظهور الموشح.

ب- ميل الأندلسيين للإبداع والابتكار والخروج على الأوزان التقليدية.

جـ- طبيعة الحياة التي عاشها الأندلسيون، وشيوع أجواء الحرية والانفتاح، وانتشار مجالس السَّمَر في بيئة جميلة.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة «وشح».

(٢) أبو الحسن علي بن نافع، موسيقي ومطرب، أخذ الغناء عن إسحاق الموصلي، وأضاف الوتر الخامس للعود، (ت٢٤٣هـ).

٣- أشهر الوشاحين الأندلسيين

يعدّ مُقَدَّم بن مُعافى القَبْرِي رائد الموشح، وأول من نَظَمه، ثم لمعت أسماء مهمة من وشاحي الأندلس، مثل: عُبادة بن ماء السّماء، وابن بَقِيّ، والأعمى التّطيليّ، ولسان الدّين بن الخطيب، وابن باجَة، وابن سَهل الإشبيلي، وابن زُهْر الإشبيلي.

٤- بناء الموشح

اتخذ الموشح بنية تتكون من أجزاء معينة تتردد في الموشح بانتظام، ولكل جزء من هذه البنية اسمه الذي اصطلح عليه الدارسون، ويتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له: التام، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له: الأقرع، فالتام ما ابْتُدِئ فيه بالأقفال، والأقرع ما ابْتُدِئ فيه بالأبيات (١).

ولكي تتضح بنية الموشح، نسوق مثالًا تطبيقيًّا من موشح «يا زمان الوصل» للسان الدين ابن الخطيب، موضِّحًا عليه أجزاء الموشح، وقد قاله يمدح أمير غرناطة أبا عبد الله محمد الغني بالله، معارضًا ابن سَهل الإشبيلي في موشحه «هل درى ظبي الحمى»، وقد جمع ابن الخطيب في موشحه بين مدحٍ وغزلٍ ووصفٍ، كما تحدث عن الهوى والشكوى ومجالس الأُنس.

---

(١) في صفحة لاحقة من هذا الكتاب سيتم التطرق بالتفصيل إلى شرح هذه المسميات.

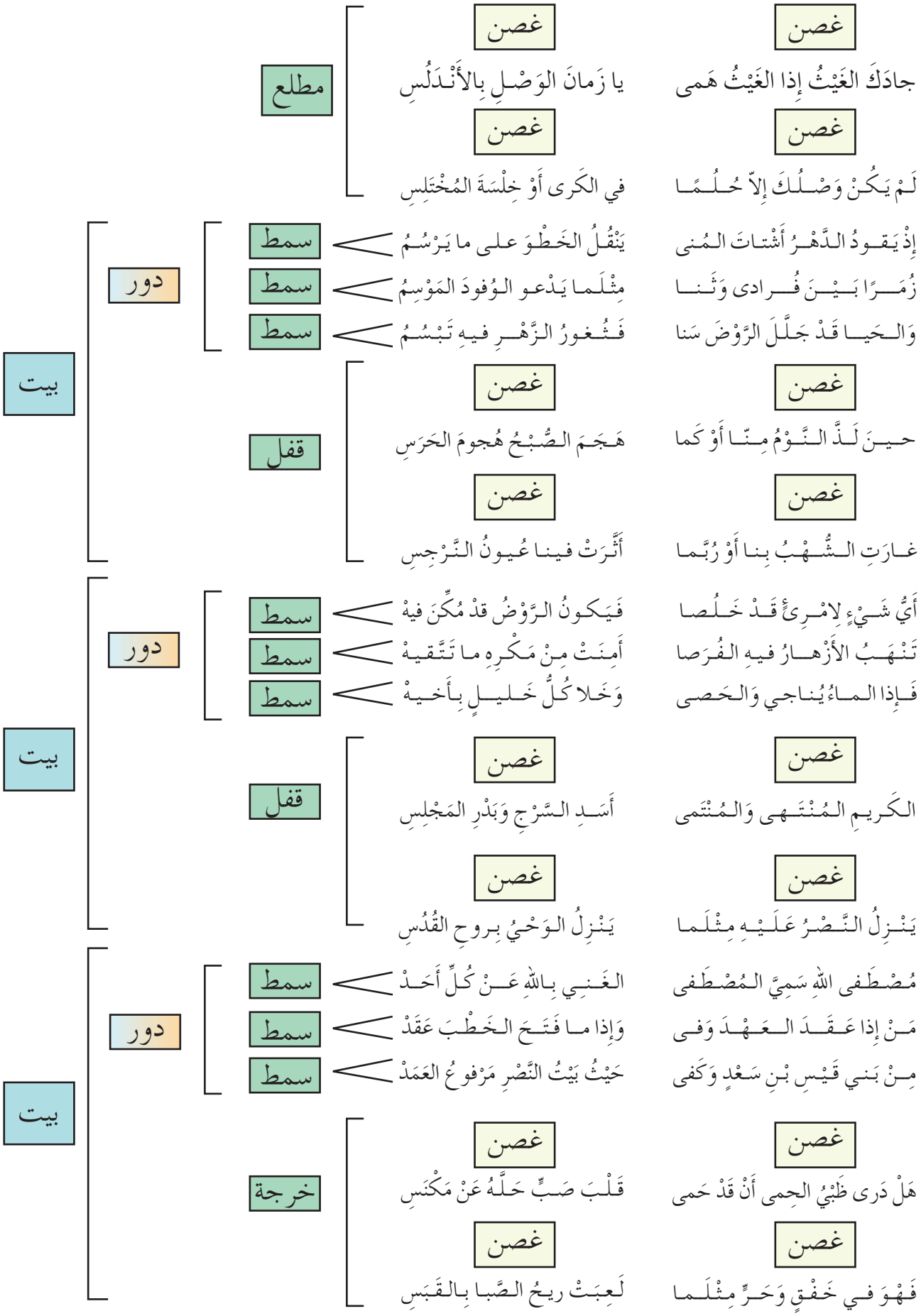
غصن
غصن
جادَكَ الغَيْثُ إذا الغَيْثُ هَمى
غصن
يا زَمانَ الوَصْلِ بِالأَنْدَلُسِ
مطلع
غصن
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إلاّ حُلُمًا
غصن
في الكَرى أَوْ خِلْسَةَ المُخْتَلِسِ
إذْ يَقودُ الدَّهْرُ أَشْتاتَ المُنى
سمط
يَثْقُلُ الخَطْوَ على ما يَرْسُمُ
زُمَرًا بَيْنَ فُرادى وَثُنا
سمط
مِثْلَما يَدْعو الوُفودَ المَوْسِمُ
وَالحَيا قَدْ جَلَّلَ الرَّوْضَ سَنا
سمط
فَشُغورُ الزَّهْرِ فيهِ تَبْسُمُ
دور
غصن
حينَ لَذَّ النَّوْمُ مِنّا أَوْ كَما
غصن
هَجَمَ الصُّبْحُ هُجومَ الحَرَسِ
قفل
غصن
غارَتِ الشُّهْبُ بِنا أَوْ رُبَّما
غصن
أَثَّرَتْ فينا عُيونُ النَّرْجِسِ
بيت
أَيُّ شَيْءٍ لِامْرِئٍ قَدْ خَلُصا
سمط
فَيَكونُ الرَّوْضُ قدْ مُكِّنَ فيهْ
تَنْهَبُ الأَزْهارُ فيهِ الفُرَصا
سمط
أَمِنَتْ مِنْ مَكْرِهِ ما تَتَّقيهْ
فَإِذا الماءُ يُناجي وَالحَصى
سمط
وَخَلا كُلُّ خَليلٍ بِأَخيهْ
دور
غصن
الكَريمِ المُنْتَهى وَالمُنْتَمى
غصن
أَسَدِ السَّرْجِ وَبَدْرِ المَجْلِسِ
قفل
غصن
يَنْزِلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَما
غصن
يَنْزِلُ الوَحْيُ بِروحِ القُدُسِ
بيت
مُصْطَفى اللهِ سَمِيَّ المُصْطَفى
سمط
الغَنِيِّ بِاللهِ عَنْ كُلِّ أَحَدْ
مَنْ إذا عَقَدَ العَهْدَ وَفى
سمط
وَإذا ما فَتَحَ الخَطْبَ عَقَدْ
مِنْ بَني قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَكَفى
سمط
حَيْثُ بَيْتُ النَّصْرِ مَرْفوعُ العَمَدْ
دور
غصن
هَلْ دَرى ظَبْيُ الحِمى أَنْ قَدْ حَمى
غصن
قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهُ عَنْ مَكْنَسِ
خرجة
غصن
فَهْوَ في خَفْقٍ وَحَرٍّ مِثْلَما
غصن
لَعِبَتْ ريحُ الصَّبا بِالقَبَسِ
بيت

بعد قراءة الموشح السابق يمكن توضيح أجزائه على النحو الآتي:

أ – المَطْلَع: القُفْل الأول من الموشح، ويتكون عادة من شطرين أو أربعة تسمّى الأغصان، وقد يخلو الموشح من المطلع فيسمى بالأقرع، وإذا وجد يسمى بالتامّ.

ب– الغُصْن: كل شطر من أشطر المطلع أو القفل أو الخرجة، وتتراوح ما بين غصنين إلى ثمانية أغصان، وتتساوى مع الأغصان الأخرى في عددها ووزنها وقافيتها.

جـ– الدَّوْر: مجموعة الأسماط التي تقع بين قُفْلين عمومًا، أو بين المطلع والقُفْل، أو بين القفل والخَرْجَة، ويسمّى كلٌّ منها سِمْطًا، وتتشابه الأدوار في عدد الأسماط وتختلف في القوافي، ولا يقل عدد الأسماط في الدور الواحد عن ثلاثة أسماط.

د – القُفْل: القسم الذي يلي الدور مباشرة، ويشبه المطلع من حيث الوزن والقافية وعدد الأغصان.

هـ – البيت: يتكون من الدّور والقُفْل الذي يليه.

و – السِّمْط: كل شطر من أشطر الدّور، ويتكرر بالعدد نفسه في بنية الموشح، ويجب أن تكون أسماط كلّ دور على روي واحد وقافية واحدة.

ز – الخَرْجَة: آخر قُفْل في الموشح، وقد تكون فصيحة اللفظ ولا سيّما إذا كانت في الغزل أو المدح، أو تكون عامية أعجمية وهي المفضلة، وأحيانًا تُسْبَق بكلمة (قال) أو (غنّى) أو أي كلمة أخرى تدل على أن الخرجة ليست استمرارًا للموشح، ويمكن أن تكون مستعارة من موشح آخر.

٥– أغراض الموشح

نُظِم الموشح في أكثر أغراض الشعر المعروفة مثل: الغزل والوصف والمدح والرثاء والزهد والطرديات[١]. ولأن الموشح ارتبط في نشأته بالغناء فمن الطبيعي أن يُنْظَم في الأغراض التي تناسب الغناء أكثر من غيرها كالغزل، ووصف مجالس السَّمَر، ووصف الطبيعة والتغني بجمال المدن الأندلسية. ونعرض في ما يأتي نماذج لموشحات ذات أغراض مختلفة:

---

(١) الطرديات: الأشعار التي نظمت في الصيد.

أ – **وصف الطبيعة**: يقول ابن المُهَلْهَل[١] في وصف نهر مبرزًا جمال الطبيعة الأندلسية، متكئًا على التشخيص:

النَّهْرُ سَلَّ حُساما عَلى قُدودِ الغُصونِ
وَلِلنَّسيمِ مَجالُ
وَالرَّوْضُ فِيهِ اخْتِيالُ
مُدَّتْ عَلَيْهِ ظِلالُ
وَالزَّهْرُ شَقَّ كِماما وَجْدًا بِتِلْكَ اللُّحونِ[٢]

ب– **الغزل**: يقول ابن الزَّقاقِ البَلَنْسِي[٣] متغزلاً:

خُذْ حَديثَ الشَّوْقِ عَنْ نَفْسي وَعَنِ الدَّمْعِ الَّذي هَمَعا
ما تَرى شَوْقي قَدِ اتَّقَدا
وَهَمى بِالدَّمْعِ وَاطَّرَدا
وَاغْتَدى قَلْبي عَلَيْكَ سُدى
آهِ مِنْ ماءٍ وَمِنْ قَبَسٍ بَيْنَ طَرْفي وَالحَشا جَمَعا

ج– **المدح**: ويمثله موشح لسان الدين بن الخطيب «يا زمان الوصل» في مدح أمير غرناطة أبي عبد الله محمد الغني بالله، وقد مرّ بك آنفًا.

الخصائص الفنية للموشح

يعد الموشح من حيث الشكل الفني ثورة على التشكيل الإيقاعي للقصيدة العربية التي تلتزم وحدة الوزن والقافية والروي، وهي شاهد على قدرة الشعراء الأندلسيين على التجديد والإبداع، ويمكن إجمال الخصائص الفنية للموشح من حيث:

---

(١) أبو الحسن على بن مهلهل الجلياني، (ت ٣٧٣هـ).
(٢) الكمام: غطاء الزهر.
(٣) علي بن عطية اللخمي المعروف بابن الزقاق البلنسي، (ت ٥٢٨هـ).

١ – اللغة

تتفاوت لغة الموشح تفاوتًا كبيرًا بين الفصاحة والتزام قواعد اللغة أحيانًا، والركاكة والضعف أحيانًا أخرى؛ وذلك لأن الغاية الغنائية للموشح وتناسبه مع العامة قادت الوشاحين أحيانًا إلى التساهل اللغوي، وعمدوا إلى استخدام الألفاظ العامية العربية والإسبانية في الخرجة.

٢ – الأسلوب

مالت أساليبه نحو الصنعة البديعية من جناس وطباق وتورية وموازنة ومقابلة، وقد أضاف هذا الأسلوب قيودًا على الألفاظ، ما أدى إلى مزيد من التكلف في بعض التراكيب.

٣ – المعاني

كانت معانيه مستمدة من البيئة الأندلسية، ومتّسمة بالبساطة والتكرار.

٤ – الصورة الشعرية

مال كثير من الوشاحين إلى التشخيص والتجسيم والتشبيه ولا سيما في موشحات وصف الطبيعة ومجالس السَّمَر، إلا أن معظم الصور الفنية كانت تقليدية مألوفة مثل تشبيه الوجه بالبدر، والنهر بالسيف، والماء بالفضة، وحبات البَرَد باللؤلؤ.

٥ – الموسيقا

حظيت الموسيقا باهتمام الوشاحين، وقادهم اهتمامهم بها إلى تنويع النغم والأوزان والقوافي ما حقق إيقاعًا يتلاءم مع اللحن والغناء، والاهتمام بالموسيقا الداخلية من خلال اختيار الألفاظ ذات الجرس الموسيقي، وتكرار بعض الحروف.

٦ – الوزن والقافية

يتنوع الموشح في الوزن ويتعدد في القافية، فكل دور له قافية واحدة مختلفة عن قافية الأدوار الأخرى، لكن مع الالتزام في الأجزاء المتماثلة، كالأغصان مع الأغصان، والأقفال مع الأقفال.

الأسئلة

١– عرف كلًا مما يأتي:

الموشح الأقرع، القفل، السمط.

٢– وضّح العوامل التي أسهمت في نشأة الموشح في الأندلس.

٣– علل ما يأتي:

أ – تسمية الموشح بهذا الاسم.

ب– يظهر التساهل اللغوي لدى الوشاحين أحيانًا في موشحاتهم.

جـ– حظيت الموسيقا باهتمام الوشاحين.

٤– اقرأ موشح «يا شقيق الرّوح» لابن زُهر، ثم أجب عن الأسئلة التي تليه:

يا شَقيقَ الرّوحِ مِنْ جَسَدي أَهَوًى بي مِنْكَ أَمْ لَمَمُ؟

ضِعْتُ بَيْنَ العَذْلِ وَالعَذَلِ

وَأَنا وَحْدي عَلى خَبَلِ

ما أَرى قَلْبي بِمُحْتَمِلِ

ما يُريدُ البَيْنُ مِنْ خَلَدي وَهْوَ لا خَصْمٌ وَلا حَكَمُ

أَيُّها الظَّبْيُ الَّذي شَرَدا

تَرَكَتْني مُقْلَتاكَ سُدى

زَعَموا أَنّي أَراكَ غَدا

وَأَظُنُّ المَوْتَ دونَ غَدٍ أَيْنَ مِنّي اليَوْمَ ما زَعموا؟

أ – ما الغرض الشعري الذي جاء عليه الموشح؟

ب– مثّل من النص على أجزاء الموشح.

جـ– استخرج من النص مثالاً على الجناس وآخر على التشبيه.

د – مثّل من خلال النص على الالتزام في الوزن والتنوع في القوافي.

٥– وضح الخصائص الفنية للموشح من حيث: المعاني، والصور الشعرية، والأسلوب.

٦– استنتج سبب ميل الوشاحين الأندلسيين إلى وصف الطبيعة واستلهامها.

النشاط

- عد إلى الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) واستمع إلى موشح (يا زمان الوصل)، مغنًّى وملحَّنًا.

خامسًا: الشعر الاجتماعي

امتاز المجتمع الأندلسي إبان الحكم العربي بالتنوع الثقافي والتفاعل الاجتماعي، حيث تألف من عناصر مختلفة الأعراق والأديان، وقد تفاعلت هذه العناصر تفاعلًا عميقًا جعل من المجتمع الأندلسي مجتمعًا متميزًا في بنائه الحضاري والفكري، ولم يكن يتسنى ذلك لولا سياسة حكام الأندلس القائمة على التعايش والتسامح، واحترام مكونات المجتمع الأندلسي.

وقد واكب الشعر الحياة الاجتماعية في الأندلس؛ فصور كثيرًا من مظاهرها، ومن تلك المظاهر التي تناولها الشعر الاجتماعي:

١- تصوير عادات الأندلسيين وتقاليدهم في الأفراح والأتراح، مثل خروج الناس لمراقبة هلال العيد وفرحتهم الغامرة بذلك وتبادل التهاني بهذه المناسبة السعيدة، يقول أبو الحسن بن هارون الشَّنْتَمري (١):

يا لَيْلَةَ العيدِ عُدْتِ ثانِيَـــةً ... وَعادَ إِحْسانُكِ الَّذي أَذْكُرْ

إِذْ أَقْبَلَ النّاسُ يَنْظُرونَ إِلى ... هِلالِكِ النِّضْوِ ناحِلًا أَصْفَرْ (٢)

فقُلْتُ لا مُؤْمِنًا بِقَوْلِيَ بَـلْ ... مُعَـرِّضًـا لِلكَـلامِ لا أَكْثَـرْ

بَلْ أَثَّرَ الصَّوْمُ في هِلالِكُمُ ... هذا الَّذي لا يَكادُ أَنْ يَظْهَرْ

ويقول ابن زيدون مهنئًا حاكم قرطبة أبا الوليد بن جَهْور بالعيد:

هَنيئًا لَكَ العيدُ الَّذي بِكَ أَصْبَحَتْ ... تَروقُ الضُّحى مِنْهُ وَتَنْدى الأَصائِلُ

تَلَقّاكَ بِالبُشْرى وَحَيّاكَ بِالْمُـــنى ... فَبُشْراكَ أَلْفٌ بَعْدَ عامِكَ قابِلُ

ومن عادات الأندلسيين لبس الثياب البيضاء في الأتراح والأحزان، يقول أبو الحسن الحصري(٣):

إِذا كانَ البَيـاضُ لِباسَ حُزْنٍ ... بِأَنْدَلُسٍ فَذاكَ مِـنَ الصَّوابِ

أَلَمْ تَرَني لَبِسْتُ بَياضَ شَيْبي ... لِأَنّي قَدْ حَزِنْتُ عَلى الشَّبابِ

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن هارون الشنتمري المالقي، (ت ٥٠٧هـ).

(٢) النضو: المهزول.

(٣) أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الحصري، (ت ٤٨٨هـ).

٢- مشاركة المسيحيين في الأندلس مناسباتهم، ومنحهم حرية العبادة وإقامة الكنائس. ومن أعياد المسيحيين التي يُحتفل بها يوم ميلاد السيد المسيح (عيد النيروز)، وعيد العَنْصَرة (المهرجان)، وهو يوم ميلاد سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام، يقول الشاعر حسان بن أبي عبدة [١] في عيد العَنْصَرة:

أَرى المِهْرَجانَ قَد اسْتَبْشَرا ... غَداةَ بَكى المُـزْنُ وَاسْتَعْبَرا
وَسُرْبِلَتِ الأَرْضُ أَفْوافَهـا ... وَجُلِّلَتِ السُّنْدُسَ الأَخْضَرا [٢]
وَهَـزَّ الرِّيـاحُ صَنابيـرَها ... فَضَوَّعَـتِ المِسْكَ وَالعَنْبَرا [٣]
تَهـادى بِـهِ النّاسُ أَلْطافَهُـمْ ... وَسـامَ المُـقِـلُّ بِـهِ المُـكْثِرا

٣- وصف المهن التي يعمل بها الناس، وتصوير معاناتهم، كقول ابن سارة الأندلسي [٤] مصوّرًا كساد حرفة الوراقة:

أَمّا الوِراقَـةُ فَـهْـيَ أَنْكَـدُ حِرْفَةٍ ... أَوْراقُـهـا وَثِـمـارُهـا الـحِرْمـانُ [٥]
شَبَّهْتُ صاحِبَها بِصاحِبِ إِبْرَةٍ ... تَكْسو العُراةَ وَجِسْمُـهـا عُرْيـانُ

٤- وصف مظاهر التطور العمراني كالقصور والمساجد والكنائس، يقول ابن وهبون [٦] في وصف قصر الزاهي في إشبيلية:

وَلِلزّاهي الكَمالُ سَنًا وَحُسْنًا ... كَما وَسِعَ الجَلالَةَ وَالكَمـالا
يُحاطُ بِشَكْلِهِ عَرْضًا وَطـولًا ... وَلكِنْ لا يُحـاطُ بِـهِ جَمـــالا
وَقورٌ مِثْلَ رُكْنِ الطَّوْدِ ثَبْـــتًا ... وَمُخْتالٌ مِنَ الـحُسْنِ اخْتِيالا
فَما أَبْقى شِهابًا لَمْ يُصَـــوَّبْ ... وَلا شَمْسًا تُـنيـرُ وَلا هِـــلالا

---

(١) الوزير حسان بن مالك بن أبي عبدة، (ت ٣٢٠ هـ).
(٢) الأفواف: مفردها فوف، وهو الثوب الرقيق الموشى المخطط.
(٣) صنابيرها: المفرد صنبور وهي النخلة تخرج من أصل النخلة الأخرى من غير أن تغرس.
(٤) أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة البكري الشنتريني، (ت ٥١٧ هـ).
(٥) حرفةُ الورّاق الذي يُورِّقُ الكتبَ، ويشمل ذلك أعمال النسخ والتصحيح والتجليد، وبيع أدوات الكتابة.
(٦) أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي، لقب بالدمعة، (ت ٤٨٤ هـ).

الخصائص الفنية للشعر الاجتماعي

بعد دراسة النماذج الشعرية السابقة نستخلص الخصائص الفنية الآتية:

١– جاء في معظمه مقطوعات شعرية قصيرة، ولا سيما عند وصف المهن وتبادل التهاني.

٢– يوظف اللغة السهلة والألفاظ الاجتماعية السائدة في المجتمع الأندلسي، مثل: ليلة العيد، والنيروز، والمهرجان، والوِراقة.

٣– يميل إلى المعاني البسيطة ويوظف الصور الشعرية السهلة، كتشبيه صاحب الوِراقة بالإبرة التي تكسو الناس، وأثر الصوم في الهلال حتى غدا نحيلًا.

الأسئلة

١– بين مظاهر التعايش والتفاعل في الأندلس من خلال ما درست.

٢– اذكر بعض العادات الاجتماعية في الأندلس.

٣– استنتج المظهر الذي يمثله كل بيت من مظاهر الشعر الاجتماعي:

أ – قالوا الكِتابَةُ أَعْلى خُطَّةٍ رُفِعَتْ قُلْتُ الحِجامَةُ أَعْلى عِنْدَ أَقْوامِ

ب– كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدِّمَشْقِ يُـــذَمُّ فيهِ طابَ الجَنى وَفاحَ المِشَـمُّ

جـ– بُشْرى بِيَوْمِ المِهْرَجانِ فَـــإِنَّهُ يَوْمٌ عَلَيْهِ مِنَ احْتِفائِكَ رَوْنَـقُ

٤– اقرأ النص الآتي، ثم أجب عن الأسئلة التي تليه:

يقول ابن خفاجة مهنئًا صديقه بعيد الأضحى المبارك، مشيرًا إلى الأضحية:

لِيُهْنِكَ وافِدُ أُنْسٍ سَـــرى فَسَرّى وَفَضْلُ سُرورٍ طَـــرَقْ

فَما شِئْتَ مِنْ ماءِ وَرْدٍ بِـــهِ أَراقَ وَمِنْ ثَوْبِ حُسْـــنٍ أَرَقْ

وَسَوْداءَ تُدْمى بِهِ مَنْـــحَرًا كَما اعْتَرَضَ اللَّيْلُ تَحْتَ الشَّفَقْ

سَتَخْلَعُ مِنْ فَرْوِها ضَحْوَةً سَوادَ الدُّجى عَنْ بَياضِ الفَلَـــقْ

أ – استنتج المظهر الاجتماعي الذي تمثله الأبيات السابقة.

ب– مثّل من النص السابق على خصائص الشعر الاجتماعي في الأندلس.

النشاط

- عد إلى كتاب « دراسات جديدة في الأدب الأندلسيّ» للدكتور صلاح جرار، واكتب تقريرًا عن أسباب التسامح الدينيّ في الأندلس، وناقشه مع زملائك.

قضايا من النثر في العصر الأندلسي

تأثر النثر في الأندلس بالنثر في المشرق العربي، فقد تعرفت عند دراستك النثر العباسي أسلوب كل من: ابن المقفع، والجاحظ، وابن العميد، وأبي حيّان التوحيدي، وسنجد أصداء ذلك في الأندلس؛ حيث تناول الأندلسيون ما كان معروفًا في المشرق من رسائل ديوانية وشخصية وخطب ووصايا، وأبدعوا خاصة في فن الرسائل الأدبية التأليفية وفن القصص الفلسفية. ونتناول في ما يأتي هذين الفنين النثريين في دراسة أشهر النماذج التي وصلت إلينا.

أولًا: الرسائل الأدبية التأليفية

أبدع الأندلسيون في فن الكتابة التأليفية، وهي مجموعة رسائل أدبية تتنوع أهدافها بين الترفيه عن النفس بما تلذّ قراءته، وشرح الحقائق بأسلوب قصصي خيالي، مصورة عواطف الناس وأهواءهم في حياتهم الخاصة والعامة. وأشهر من كتب في هذا المجال من الأندلسيين: ابن حزم(١) صاحب «طوق الحمامة في الألفة والألاّف»، وابن شُهيد(٢) صاحب «التوابع والزوابع».

١ – طوق الحمامة في الألفة والألاّف

هي رسالة رد بها ابن حزم على سائل بعث إليه من مدينة ألمِرْيَة (٣) يسأله أن يصنف له رسالة في صفة الحُبّ ومعانيه وأسبابه وأغراضه، وما يقع منه على سبيل الحقيقة.

يقع طوق الحمامة في ثلاثين بابًا، تناول فيها ابن حزم الحبّ في نشأته وتطوره وأغراضه ودرجاته وأنواعه ومكامن السعادة والتعاسة فيه.

يقول ابن حزم في باب علامات الحبّ:

«وللحبّ علامات يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي. فأولها إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع(٤)، وهي المنقبة عن سرائرها، والمعبرة لضمائرها، والمعربة عن بواطنها،

---

(١) أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، يعد من أشهر أدباء الأندلس، وكان فقيهًا كذلك، (ت ٤٥٩هـ).

(٢) أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهيد الأندلسي، أديب وشاعر أندلسي، (ت ٤٢٦هـ).

(٣) ألمِرْيَة: ثغر مهم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط. أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر.

(٤) الشارع: البادئ فيه، من الفعل (شرعَ).

فترى الناظر لا يطرف، يتنقّل بتنقّل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس. وفي ذلك أقول شعرًا:

فَلَيْسَ لِعَيْني عِنْدَ غَيرِكَ مَوقِــفٌ كَأَنَّكَ ما يَحْكونَ مِنْ حَجَرِ البَهْــتِ(١)

أُصَرِّفُها حَيثُ انْصَرَفْتَ وَكَيْفَما تَقَلَّبْتَ كَالمَنْعوتِ في النَّحْوِ وَالنَّعْتِ

ومنها الإقبال بالحديث، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه، والإنصات لحديثه إذا حدّث، واستغراب كل ما يأتي به ولو أنه عين المحال وخرق العادات».

الخصائص الفنية لرسالة ابن حزم

بعد دراسة النموذج السابق من رسالة طوق الحمامة نلاحظ أنها:

١- تستخدم عبارات قصيرة سلسة بعيدة عن التكلف، وذلك واضح في قول ابن حزم «فترى الناظر لا يطرف، يتنقل بتنقّل المحبوب، وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس».

٢- تعالج عاطفة الحب من منظور إنساني مستخدمةً التسلسل المنطقي، فأول علامات الحب عند ابن حزم إدمان النظر، ثم الإقبال بالحديث... .

٣- تستشهد بالشعر لتوضيح المعنى.

---

(١) حجر البهت: حجر أبيض شفاف يتلألأ حسنًا.

٢- التوابع والزوابع

يرجع سبب تأليف هذه الرسالة إلى أن كاتبها ابن شُهيد الأندلسي لم ينل من أدباء عصره وعلمائه إلا النقد، فأراد أن يثبت لنظرائه قدرته على الكتابة، فاخترع شياطين للشعراء المشهورين والكُتّاب النابهين؛ ليسمعهم من شعره ونثره ما يحملهم على الاعتراف له بالتفوق والعبقرية في زمانه، وجرت بينه وبينهم مطارحات أدبيّة، ومناقشات لغوية تجلّت فيها آراء ابن شُهيد النقديّة، وقد أجازوه، وذلك باعترافهم بتفوّقه وجودة أدبه. وقد وجّه ابن شُهيد رسالته إلى شخص كناه أبا بكر (وهو شخصية خيالية).

اختار ابن شُهيد لرسالته اسم « التوابع والزوابع»؛ لأنه جعل مسرحها عالم الجن، واتخذ كل أبطالها – في ما عداه – من الشياطين. فالتوابع: جمع تابع أو تابعة وهو الجنيّ أو الجنّيّة، ويكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب. والزوابع: جمع زوبعة: وهو اسم شيطان أو رئيس للجن.

يحكي ابن شُهيد في رسالته رحلة في عالم الجن اتصل من خلالها بتوابع الشعراء والكُتّاب، وناقشهم وناقشوه، وأنشدهم وأنشدوه، وعرض في أثناء ذلك بعض آرائه النقدية في الأدب واللغة، وكثيرًا من نماذج شعره ونثره، ودافع عن فنّه، وانتزع من توابع الشعراء والكُتّاب الذين حاورهم شهادات بتفوقه في الشعر والأدب.

الأسئلة

١– بين الهدف من الكتابة التأليفية.

٢– علل تسمية ابن شُهيد رسالته « التوابع والزوابع ».

٣– اقرأ النص الآتي من رسالة «طوق الحمامة» ثم استنتج من خلاله أهم خصائص الرسالة:

يقول ابن حزم في باب من أحبّ بالوصف:

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة، وهذا أمر يُتَرقّى منه إلى جميع الحب، فتكون المراسلة والمكاتبة، والهم والوجد، والسهر على غير الإبصار، فإنّ للحكايات ونعت المحاسن، ووصف الأخبار، تأثيرًا في النفس ظاهرًا. وأن تسمع نَغمتها من وراء جدار، فيكون سببًا للحب واشتغال البال. وفي ذلك أقول شعرًا:

وَيا مَنْ لامَني في حُـــ ـــبِّ مَنْ لَـمْ يَـرَهُ طَـرْفـي
لَقَدْ أَفْرَطْتَ في وَصْفِـ ـكَ لِي في الحُبِّ بالضَّعْفِ
فَقُلْ: هَلْ تُعْرَفُ الجَنَّـ ـةُ يَوْمًا بِسوى الوَصْفِ

٤– كيف انتزع ابن شهيد من توابع الشعراء والخطباء شهادة بتفوقه في الأدب؟

٥– وازن بين رسالتي: «طوق الحمامة» و«التوابع والزوابع» من حيث: سبب التأليف، والموضوع.

ثانيًا: فنّ القصة الفلسفية

كثرت القصص الفلسفية التأملية في العصر الأندلسي، إذ كان كتّابها يتخذونها وسيلة للتعبير عن فكرهم وفلسفتهم وآرائهم. ومن أمثلة هذه القصص قصة (حيّ بن يقظان) لابن طفيل[١].

وهذه القصة تلخيص فلسفي تأملي جميل لأسرار الطبيعة والخَليقة، عُرِضَت من خلال حياة طفل يدعى (حيّ بن يقظان) أُلقيَ في جزيرة مجهولة من جزائر الهند، جنوب خط الاستواء. وقد استطاع هذا الطفل بالملاحظة والتأمل التدريجي لظروف الحياة ومظاهرها الطبيعية أن يدرك بفطرته وتفكيره أنّ لهذا الكون خالقًا.

يذكر ابن طفيل في قصته أن الجوع قد اشتد بالطفل حي بن يقظان، فأخذ يبكي ويستغيث ويعالج الحركة، حتى وقع صوته في أذن ظبية كانت قد فقدت ولدًا لها، « فلما سمعت الصوت ظَنّتْه ولدها فتبعت الصوت حتى وصلت إلى التابوت ففحصت عنه بأظلافها وهو يئن من داخله حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه»، فوجدت الظبية في هذا الصغير المتروك عوضًا عن ولدها، فحضنته، « وأروته لبنًا سائغًا وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع الأذى عنه».

يسرد ابن طفيل في قصته بدقةٍ كيف يتعلم الطفل من الظبية ومما حوله من الحيوان في الجزيرة كثيرًا من الأشياء التي تعينه على كشف الحقائق واكتساب المعارف والمهارات، ويحكي جميع ما يسمعه من أصوات. ثم تموت الظبية التي قامت على رعايته، فيهتم لذلك ويقف أمام جثّتها في حيرة، حتى يهديه تفكيره إلى شق صدرها في محاولة لمعرفة ما أصابها، فيكتشف أن شيئًا ما قد فارق الجسد؛ به تكون الحياة أو لا تكون. ثم يهتدي إلى طريقة دفن جسد الظبية بعد أن تعفن. وبعد ذلك يعتمد على نفسه مستخدمًا معارفه في اكتشاف ضروريات الحياة من النار وبعض ألوان الطعام.

يقول ابن طفيل: « واتفق في بعض الأحيان أن انقدحت نار في أجمة [٢].. فلما بصر بها رأى منظرًا هاله، وخلقًا لم يعهده من قبل، فوقف يتعجب منها مليًّا، وما زال يدنو منها شيئًا فشيئًا، فرأى للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب، حتى لا تعلق بشيء إلا أتت عليه، وأحالته

---

(١) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي، فيلسوف ومفكر وطبيب، (ت ٥٨١هـ).

(٢) الأجمة: الشجر الكثير الملتف، جمعها آجام.

إلى نفسها، فحمله العجب بها وبما ركب الله ـ تعالى ـ في طباعه من الجراءة والقوة على أن يمد يده إليها، وأراد أن يأخذ منها شيئًا فلما باشرها أحرقت يده، فلم يستطع القبض عليها، فاهتدى إلى أن يأخذ قبسًا لم تستول النار على جميعه، فأخذ بطرفه السليم والنار في طرفه الآخر فحمله إلى موضع كان يأوي إليه...فكان يزيد أُنسه به ليلًا لأنها كانت تقوم مقام الشمس في الضياء والدفء، فعظم به ولوعه، واعتقد أنها أفضل الأشياء إليه».

الخصائص الفنية لقصة حي بن يقظان

تميز أسلوب ابن طفيل في قصة حي بن يقظان بالخصائص الآتية:

١- تأثره بمضامين القرآن الكريم، ولا سيما بقصة سيدنا موسى عليه السلام عند ذكر التابوت والنار التي استأنس بها.

٢- يعتمد التأمل والتفكر في الخلق والكون، وهذا واضح في قوله عند تفكيره وتأمله بعد وفاة الظبية فاهتدى إلى شق صدرها لمعرفة ما أصابها.

٣- عني بدقة الوصف والسرد، ولا سيّما عند الحديث عن تعلم الطفل من الظبية وما حوله المهارات واكتشاف الأشياء واعتماده على نفسه بعد موت الظبية.

الأسئلة

١- بين هدف ابن طفيل من تأليف قصة (حي بن يقظان).

٢- مثل على الخصائص الفنية لقصة حي بن يقظان من النص الآتي:

«ثم إنه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتًا، ثم جعل الحي يبحث في الأرض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب، فقال في نفسه: ما أحسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه وإن كان قد أساء في قتله إياه! وأنا كنت أحق بالاهتداء إلى هذا الفعل بأمي! فحفر حفرة وألقى فيها جسد أمه، وحثا عليها وبقي يتفكر في ذلك الشيء المصرف للجسد ما يدري ما هو ... ثم إنه بعد ذلك أخذ في تصفح جميع الأشياء التي في عالم الكون والحياة من الحيوانات على اختلاف أنواعها والنبات وأصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والدخان والجمر، فرأى لها أفعالًا مختلفة وحركات متفقة ومتضادة، وأنعم النظر في ذلك، فرأى أنها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض».

٣- وازن بين رسالة التوابع والزوابع وقصة حي بن يقظان من حيث: سبب التسمية، والهدف من التأليف.

٢
الوحدة الثانية
الأدب في العصرين: الأيوبي والمملوكي

النتاجات الخاصة بالوحدة

يتوقع من الطالب بعد دراسة الوحدة أن:

- يتعرف أهم أغراض الشعر في العصرين: الأيوبي والمملوكي:(شعر الجهاد، والمدائح النبوية).
- يتبين صدى الغزوين: الصليبيّ والمغوليّ، في الشعر في العصرين: الأيوبي والمملوكيّ.
- يوضّح السّمات الفنية التي اتّصف بها شعر الجهاد في العصرين: الأيوبي والمملوكيّ.
- يفسر أسباب ازدهار شعر المدائح النبويّة في العصرين: الأيوبي والمملوكيّ.
- يسمّي أبرز شعراء المدائح النبوية في العصرين: الأيوبيّ والمملوكيّ.
- يستخلص الموضوعات والمضامين التي تضمّنتها قصيدة المديح النبويّ.
- يتعرف أشهر الفنون النثرية في العصرين: الأيوبي والمملوكي (أدب الرحلات، وفن الرسائل، وفن الخطابة، والتأليف الموسوعي).
- يتعرف أشهر الرّحالة وكتّاب الرسائل والخطباء في العصرين: الأيوبي والمملوكي.
- يحلل نماذج من: أدب الرحلات، والرسائل، والخطب.
- يتعرف أهم الموسوعات في العصرين: الأيوبي والمملوكي.
- يثمن الفنون الأدبية باعتبارها تؤرخ لحقبة زمنية.
- يتعرف أسباب ضعف الأدب العربي في العصر العثماني.
- يتعرف عوامل نهضة الأدب العربي في العصر الحديث، وأهم الرواد والأدباء الذين أسهموا فيها.

قضايا من الشعر في العصرين: الأيوبي والمملوكي

مقدمة

حفل العصران: الأيوبي والمملوكي بالأحداث الجسام، التي أصابت أقطار العالم الإسلامي بالتفكك السياسي والعسكري؛ من جراء الغزوين: الصليبي والمغولي لمشرق العالم العربي. وقد كان للأدب دور كبير في تصوير تلك الأحداث، واستنهاض همم المسلمين، وحثهم على الجهاد، وتحرير أراضي المسلمين.

أولًا: شعر الجهاد

١- صدى الغزو الصليبي في الشعر

تعرضت ديار الإسلام في المشرق العربي لغزو صليبيّ امتد من أواخر القرن الخامس الهجري إلى أواخر القرن السابع الهجري، وشهدت هذه الحقبة نزاعات داخلية بين أمراء الدول الإسلامية وقادتها فضعفت قوتهم العسكرية؛ ما هيّأ لدول أوروبا أن تغزو المشرق العربي وتحتل بعض مدنه تحت مسمى «الحروب الصليبية».

وقد قيض الله – تعالى – للأمة بعض القادة أمثال: عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، الذين عملوا على توحيد صفوف المسلمين، في بلاد الشام ومصر؛ لمواجهة هذا الغزو وتحرير ما احتله الأعداء بعد حروب طاحنة أعادت للأمة حقها وهيبتها.

واكب الشعر هذه الحروب، وصوّر أحداثها تصويرًا دقيقًا، وأشاد بفتوحاتها، ومدح أبطالها وقادتها، وصارت هذه الحروب هي الصبغة العامة لموضوعاته، فلا يكاد ديوان شعر يخلو في هذه الحقبة من قصائد عن البطولات الرائعة في مقاومة الصليبيين، ولم يكتف الشعراء بذلك، بل وصفوا النكبات التي مُنِي بها المسلمون، ولا سيما الجرائم الوحشيّة التي اقترفها الصليبيون في القدس وغيرها من المدن الإسلامية.

ويمكن القول إن الشعر عايش أحداث هذا العصر في مضامين ثلاثة، هي:

أ – تصوير سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين

ومن القصائد المبكرة التي صوّرت هذا الحدث قصيدة الشاعر محمد بن أحمد الأَبيوَرْديّ[١]، التي قالها بعد احتلال الصليبيين بيت المقدس سنة (٤٩٢هـ)، ووصف فيها آثار هذا الاحتلال، وحث على إذكاء المشاعر واستنهاض الهمم، وحضّ على قتال الغزاة، ومنها:

مَزَجْنا دِماءً بِالدُّموعِ السَّواجِمِ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنّا عَرْصَةٌ لِلمَراحِمِ[٢]
وَشَرُّ سِلاحِ المَرْءِ دَمْعٌ يُفيضُهُ ... إِذا الحَرْبُ شُبَّتْ نارُها بِالصَّوارِمِ
وَكَيْفَ تَنامُ العَيْنُ مِلْءَ جُفونِها ... عَلى هَفَواتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نائِمِ
فَإِيهًا بَنِي الإِسْلامِ إِنَّ وَراءَكُمْ ... وَقائِعَ يُلْحِقْنَ الذُّرى بِالمَناسِمِ[٣]

ومن ذلك قول ابن المجاور[٤] يبكي ما حل بالمسجد الأقصى، ويربط بين الأماكن المقدسة في أحزانها:

أَعَيْنَيَّ لا تَرْقَيْ مِنَ العَبَراتِ ... صِلي في البُكا الآصالَ بِالبُكُراتِ
عَلى المَسْجِدِ الأَقْصى الَّذي جَلَّ قَدْرُهُ ... عَلى مَوْطِنِ الإِخْباتِ وَالصَّلَواتِ[٥]
لِتَبْكِ عَلى القُدْسِ البِلادُ بِأَسْرِها ... وَتُعْلِنَ بِالأَحْزانِ وَالتَّرَحاتِ
لِتَبْكِ عَلَيْها مَكَّةٌ فَهْيَ أُخْتُها ... وَتَشْكو الَّذي لاقَتْ إِلى عَرَفاتِ

ب– الدعوة إلى تحرير المدن ولا سيما بيت المقدس

أخذ الشعراء على عاتقهم عبء التحريض على مواجهة الصليبيين واستثارة الهمم والعزائم.

---

(١) أبو المظفر محمد بن أحمد بن إسحاق الأبيوردي، شاعر وكاتب، (ت ٥٠٧هـ).

(٢) السواجم: الجارية.

(٣) إيهًا: اسم فعل أمر، ومعناه طلب الكفّ والانتهاء. الذرى: ذروة كل شيء أعلاه وذرى الإبل أسنمتها. المنسم: طرف الخف.

(٤) ابن المجاور: جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن مجاور الشيباني الدمشقي، ولد في دمشق، ونشأ في بغداد وترعرع فيها، (ت ٦٩٠هـ).

(٥) الإخبات: الخشوع والتواضع.

فهذا ابن القيسراني[1] يدعو القائد نور الدين زنكي إلى إنقاذ بيت المقدس في قصيدة يعارض[2] فيها أبا تمام في قصيدته المشهورة «فتح عموريّة»:

هذي العَزائِمُ لا ما تَدَّعي القُضُبُ ... وَذي المَكارِمُ، لا ما قالَتِ الكُتُبُ
وَهذِهِ الهِمَمُ اللّاتي مَتى خَطَبَتْ ... تَعَثَّرَتْ خَلْفَها الأَشْعارُ وَالخُطَبُ
صافَحْتَ يا بْنَ عِمادِ الدّينِ ذَرْوَتَها ... بِراحَةٍ لِلمَساعي دونَها تَعَبُ
فَانْهَضْ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصى بِذي لَجَبٍ ... يوليكَ أَقْصى المُنى، فَالقُدْسُ مُرْتَقِبُ

جـ- تسجيل الانتصارات، والتهنئة بالفتوحات ولا سيما فتح بيت المقدس

لم يكن الشعر بمعزل عن أحداث هذه المرحلة وما فيها من معارك فاصلة، وانتصارات خالدة، بل إنه تابع تفصيلات هذه الأحداث متابعة دقيقة في نقاط التماس مع قوى الصليبيين الباغية.

قال ابن السّاعاتي[3] في فتح طبرية سنة (٥٨٣هـ) وقد نوّه بهذا الفتح المبين، وأشاد بالبطل المظفر صلاح الدين صاحب النصر الأغرّ، وبيّن مكانة هذا الفتح العظيم وارتباطه بمكة والقدس:

جَلَتْ عَزَماتُكَ الفَتْحَ المُبينا ... فَقَدْ قَرَّتْ عُيونُ المُؤْمِنينا
رَدَدْتَ أَخيذَةَ الإِسْلامِ لَمّا ... غَدا صَرْفُ القَضاءِ بِها ضَمينا
غَدَتْ في وَجْنَةِ الأَيّامِ خالاً ... وَفي جيدِ العُلا عِقْدًا ثَمينا
فَيا للهِ كَمْ سَرَّتْ قُلوبًا ... وَيا للهِ كَمْ أَبْكَتْ عُيونا
وَما طَبَرِيَّةٌ إِلّا هَدِيٌّ ... تَرَفَّعُ عَنْ أَكُفِّ اللّامِسينا

وفي السنة نفسها التي فُتحت فيها طبرية جاءت معركة حطين الخالدة، الموقعة الفاصلة في التاريخ الإسلامي التي انتصر فيها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين،

---

(١) شرف الدين ابن القيسراني، نسبة إلى(قيسارية) في ساحل بلاد الشام، نزل بها فنسب إليها، (ت ٥٤٨هـ).

(٢) المعارضات قصائد نسجها قائلوها على نمط قصائد سابقة مشهورة، تشترك معها في الوزن والقافية وموضوعها العام وحرف الروي وحركته. ومطلع قصيدة (فتح عمورية) لأبي تمام:
السيف أصدق إنباءً من الكتبِ ... في حده الحدّ بين الجدّ واللعبِ.

(٣) علي بن رستم، المعروف بابن الساعاتي؛ لأن والده عرف بصنع الساعات، نشأ وتثقف في دمشق. وبعد أكثر من ثلاثين عامًا مضى إلى مصر وأقام بها، (ت ٦٠٤هـ).

وتمكنوا من تحرير بيت المقدس ثم تحرير معظم ما كان محتلًّا من ديار الإسلام في بلاد الشام. كان فتح القدس الأمل المنشود لكل مسلم عاش زمن تلك الحروب، وقد ترك هذا النصر أصداء طيبة في نفوس المسلمين الذين قرّت عيونهم باسترداد بيت المقدس، بعد أن طال العهد على احتلاله، يقول الرشيد النابلسي(١):

هذا الَّذي كانَتِ الآمالُ تَنْتَظِـــــرُ ... فَلْيوفِ للهِ أَقْوامٌ بِمـــــا نَـــذَروا
يا بَهْجَةَ القُدْسِ أَنْ أَضْحى بِهِ عَلَم الـ ... ـإِسْلامِ مِنْ بَعْدِ طَيٍّ وَهْوَ مُنْتَشِـــرُ
اللهُ أَكْبَرُ صَـــوْتٌ تَقْشَعِرُّ لَـــــهُ ... شُمُّ الذُّرى وَتَكادُ الأَرْضُ تَنْفَطِـرُ
ما اخْضَرَّ هذا الطِّرازُ السّاحِلِيُّ ثَرًى ... إِلّا لِتَعْلو بِهِ أَعْلامُكَ الصُّفُـــــرُ (٢)

وشهد الشعر المعارك الأخيرة التي أخرجت الغزاة من بلاد المسلمين، فسجلوا أفراحها تسجيلًا دقيقًا فيه النشوة بتحقيق الآمال المنتظرة منذ مدة طويلة، فلا تخلو معركة انتصر فيها المسلمون إلا وتنافس الشعراء في نظم القصائد فرحًا بالنصر، وابتهاجًا بخذلان الكفر، ومن ذلك لما حُررت مدينة عكا على يد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بعد أن ظلت محتلة أكثر من مئة عام بعد معركة حطين، وهُزم آخر جيش للصليبيين سنة (٦٩٠هـ) وأُخرجوا من معقلهم الأخير، وفي ذلك قال شهاب الدين محمود الحلبي(٣):

هـذا الَّذي كانَتِ الآمالُ لَوْ طَلَبَـتْ ... رُؤْياهُ في النَّوْمِ لاَسْتَحْيَتْ مِنَ الطَّلَبِ
أُمُّ الحُـروبِ فَكَمْ قَـــدْ أَنْشَأَتْ فِتَنًا ... شابَ الوَليدُ بِها هَـوْلًا وَلَمْ تَشِـــبِ
يا يَوْمَ عَكّا لَقَـــدْ أَنْسَيْتَ مَا سَبَقَـتْ ... بِهِ الفُتوحُ وَما قَدْ خُـطَّ فـــي الْكُتُبِ
فَقَرَّ عَيْنًا لِهـــــذا الفَتْحِ وَابْتَهَجَـتْ ... بِبِشْرِهِ الكَعْبَةُ الْغَرّاءُ فـــــي الحُجُبِ

٢- صدى الغزو المغولي في الشعر

غزا المغول العالم الإسلامي قبل انتهاء الحروب الصليبية، فقضوا على الخلافة العباسية ودمّروا عاصمتها بغداد سنة (٦٥٦هـ)، وعاثوا في الأرض قتلاً لأهلها ودمارًا لديارها وحرقًا لمكتباتها.

---

(١) عبد الرحمن رشيد الدين النابلسي، (ت ٥٨٤هـ).

(٢) لم يحرك حرف الواو في (لتعْلو) بالفتح للضرورة الشعرية والوزن.

(٣) أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود، كنيته أبو العباس، ولقبه شهاب الدين أو الشهاب الحلبي، (ت ٧٥٦هـ).

وقد تفاعل الشعراء مع أحداث هذا الغزو بتصويرها والإشادة ببطولات قادتها من المسلمين، ورثاء شهدائها وتبيان آثارها في دياد المسلمين، ويمكننا الوقوف على أبرز ما في هذه الأحداث من مضامين:

أ – تصوير سقوط المدن

سقط كثير من المدن الإسلامية في يد الغزو المغولي من أهمها مدينة بغداد، فكان سقوطها حدثًا جللًا له وقع مؤلم في نفوس المسلمين جميعهم؛ فنظم شعراؤهم مراثي تشيع الأسى في النفوس وتثير شجونها، من هذه المراثي قول ابن أبي اليُسر(١):

لِسائِلِ الدَّمْعِ عَنْ بَغْدادَ إِخْبـــــارُ ... فَما وُقوفُكَ وَالأَحْبابُ قَدْ ساروا
يا زائِرينَ إِلى الزَّوْراءِ لا تَفِـــــدوا ... فَما بِذاكَ الحِمى وَالدّارِ دَيّـــارُ(٢)
تاجُ الخِلافَةِ وَالرَّبْعُ الَّذي شَرُفَـتْ ... بِـهِ الـمَعـالِـمُ قَـدْ عَـفّـاهُ إِقْـفـارُ
أَضْحى لِعَصْفِ البِلى في رَبْعِهِ أَثَـرٌ ... وَلِـلـدُّمـوعِ عَـلـى الآثـارِ آثـــارُ
إِلَيْكَ يا رَبَّنا الشَّكْوى فَأَنْتَ تَـرى ... ما حَـلَّ بِالدّينِ وَالباغونَ فُجّـارُ

ثم سقطت مدينة دمشق على يد القائد المغولي غازان سنة (٦٥٨هـ). وبيّن الشاعر علي الأوتاري(٣) ما حل بهذه المدينة من قتل النفوس، ونهب الأموال، واسترقاق الأولاد، وسبي النساء وقتلهن، وتخريب البلاد، فقال:

أَحْسَنَ اللهُ يـا دِمَـشْـقُ عَـــزاكِ ... في مَـغـانـيـكِ يـا عِمادَ الـبِـــلادِ
وَبِـأُنْـسٍ بِـ (قـاسـيـونَ) وَنـــاسٍ ... أَصْبَحوا مَغْنَمًا لِأَهْلِ الفَســـادِ(٤)
طَرَّقَتْهُمْ حَـوادِثُ الدَّهـرِ بِالقَتْـــ ... ـلِ وَنَهْـبِ الأَمْـــوالِ وَالأَوْلادِ

ب– تسجيل الانتصارات

كانت معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ) بقيادة السلطان قطز بداية تحرير البلاد الإسلامية من المغول، ودخل الملك المظفر قطز دمشق في موكب عظيم. وكان لهذا الحدث العظيم

---

(١) تقي الدين أبو محمد، إسماعيل بن أبي اليسر التنوخي، كان له يد في النظم والنثر، (ت ٦٧٢هـ).
(٢) فما بذاك الحمى والدّار ديّار: أي لا يوجد فيها أحد.
(٣) علاء الدين علي الأوتاري الدمشقي، (ت٧٢٤هـ).
(٤) قاسيون: جبل في مدينة دمشق مشهور.

تأثيره العميق في نفوس المسلمين جميعًا، وكان أشد فرحًا وأعظم تأثيرًا في نفوس الشعراء منهم، فتغنوا بهذا النصر المؤزر، فقال أحدهم مصورًا مصير المغول، ومشيدًا بالسلطان المظفر قطز:

هَلَكَ الكُفْرُ في الشَّآمِ جَميعًا ... وَاسْتَجَدَّ الإِسْلامُ بَعْدَ دُحوضِهْ(١)
بِالمَليكِ المُظَفَّرِ المَلِكِ الأَرْ ... وَعِ سَيْفِ الإِسْلامِ عِنْدَ نُهوضِهْ
مَلِكٌ جاءَنا بِعَزْمٍ وَحَزْمٍ ... فَاعْتَزَزْنا بِسُمْرِهِ وَبِبيضِهْ
أَوْجَبَ اللهُ شُكْرَ ذاكَ عَلَيْنا ... دائِمًا مِثْلَ واجِباتِ فُروضِهْ

وقال شرف الدين الأنصاري(٢) من قصيدة يمدح فيها الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماة مع جنده إلى جانب المظفر قطز في معركة عين جالوت:

رُعْتَ العِدى فَضَمِنْتَ شَلَّ عُروشِها ... وَلَقيتَها فَأَخَذْتَ فَلَّ جُيوشِها
دارَتْ رَحى الحَرْبِ الزَّبونِ عَلَيْهِمُ ... فَغَدَتْ رُؤوسُهُمُ حُطامَ جَريشِها(٣)
وَطَوَيْتَ عَنْ مِصْرٍ فَسيحَ مَراحِلٍ ... ما بَيْنَ بِرْكَتِها وَبَيْنَ عَريشِها
حَتّى حَفِظْتَ عَلى العِبادِ بِلادَها ... مِنْ رُومِها الأَقْصى إِلى أُحْبوشِها

الخصائص الفنيّة لشعر الجهاد

تتلخص الخصائص الفنية لشعر الجهاد في العصرين: الأيوبي والمملوكي بأنه:

١- يتصف بالواقعية من خلال وصف أحداث المعارك وصفًا مباشرًا، مثل وصف شرف الدين الأنصاري معركة عين جالوت.

٢- يكثر من استخدام الفنون البديعية كالجناس (وَلِلدُّموعِ عَلى الآثارِ آثارُ)، والطباق (فَيا للهِ كَمْ سَرَّتْ قُلوبًا ... وَيا للهِ كَمْ أَبْكَتْ عُيونا).

٣- يتميز بحرارة العاطفة وتدفق المشاعر، ولا سيما عند الحديث عن سقوط المدن وتصوير المآسي والفرح بالانتصارات.

---

(١) دحوضه: بطلان الكفر.

(٢) هو عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري الأوسي، المعروف بابن قاضي حماة، شاعر وفقيه، ولد في دمشق، وسكن حماة، (ت ٦٦٢هـ).

(٣) تزبن الحرب الناس يعني تصدمهم فهي زبون. الجريش: ما طحن من الحَب طحنًا خشنًا.

الأسئلة

١ – اذكر ثلاثة من الشعراء الذين انعكست أصداء الغزو الصليبي في أشعارهم.

٢ – كان لمعركة حطين وتحرير بيت المقدس صدى كبير في الشعر العربي آنذاك، وضح ذلك مستشهدًا بنصوص شعرية مناسبة.

٣– استنتج المضمون الذي يمثله كل مما يأتي:

أ – قال العماد الأصفهاني:

وَلِلنّاسِ بِالمَلِكِ النّاصِرِ الصَّـــــلاحِ صَلاحٌ وَنَصْرٌ وَخَيْـــــــرُ
نُهوضًا إِلى القُدْسِ يَشْفي الغَليلَ بِفَتْحِ الفُتوحِ وَماذا عَسيرُ

ب– قال ابن منير الطرابلسي:

فَتْحٌ أَعادَ عَلى الإِسْلامِ بَهْجَتَهُ فَافْتَرَّ مَبْسِمُهُ وَاهْتَزَّ عِطْفاهُ

٤– كان لمعركة عين جالوت صدى كبير في الشعر العربي زمن الغزو المغولي، وضح ذلك مستشهدًا بنصوص شعرية مناسبة.

٥– اقرأ الأبيات الآتية لبهاء الدين البهائي، ثمّ أجبْ عن الأسئلة التي تليها:

لَهْفي عَلى تِلْكَ البُروجِ وَحُسْنِها حَفَّتْ بِهِنَّ طَوارِقُ الحَدَثانِ
لَهْفي عَلى وادي دِمَشْقَ وَلُطْفِهِ وَتَبَـدُّلِ الغِـزْلانِ بِالثّيــرانِ
وَشَكا الحَريقَ فُؤادُها لَـمّا رَأَتْ نورَ المَنازِلِ أُبْدِلَتْ بِدُخـانِ

أ – بيّن المضمون الذي تناولته الأبيات السابقة.

ب– من الخصائص الفنية لشعر الجهاد في العصرين: الأيوبي والمملوكي حرارة العاطفة، وضح ذلك من خلال الأبيات السابقة.

٦– بين دور الأدب في تسجيل الأحداث ومواكبتها في العصرين: الأيوبي والمملوكي.

٧– وازن بين رثاء المدن في العصر الأندلسي وفي العصرين: الأيوبي والمملوكي.

ثانيًا: المدائح النبوية

١- مفهوم المديح النبوي

فن شعري يُعنى بمدح النبي محمد ﷺ وتعداد صفاته الخُلُقية والخَلْقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارته، وزيارة الأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية، والإشادة بغزواته.

وقد سمي هذا الفن مديحًا لا رثاءً؛ لأن الرسول ﷺ حيٌّ في نفوس المسلمين برسالته وسنته ومبادئه التي بُعث من أجلها.

٢- نشأته

نشأ المديح النبوي في صدر الإسلام، واستمر النظم فيه في العصرين: الأموي والعباسي. وقد تطوّر هذا الشعر وأصبح يشكل ظاهرة تسترعي الانتباه في العصرين: الأيوبي والمملوكي، ويعود ذلك إلى ما تعاقب على المسلمين من ويلات ومصائب وأحزان، وقد لاقى كثيرون من شدة وطأتها القهر والألم، وجعلتهم يعيشون في تعب ونكد، ولا سيّما بعد الهجمات المتوالية: الصليبية الجائرة من الغرب، والتترية الغادرة من الشرق، فما كان منهم إلا التوجه إلى الله – تعالى – والتضرع إليه كي ينجيهم من الكرب الذي وقع عليهم والضيم الذي لحق بهم، وتوسلوا إلى رسوله الكريم محمد ﷺ أن يكون شفيعًا لهم عند الله لكي ينجيهم من النوائب التي كادت تقضي على وجودهم.

كثر النظم في المديح النبوي، وأقبل الناس عليه بشغف ولهفة، يجدون فيه فرحتهم وسعادتهم وراحتهم النفسية، ويتدارسونه وينشدونه في مجالسهم ومحافلهم وأماكن عبادتهم.

٣- من أشهر شعرائه

نظم عدد من الشعراء دواوين خاصة قصروها على المديح النبوي، مثل: «معارج الأنوار في سيرة النبي المختار» للصَّرْصَري (ت ٦٥٦هـ)، و«بشرى اللبيب بذكرى الحبيب» لابن سيد الناس اليعمري (ت٧٣٤هـ)، و«منتخب الهدية في المدائح النبوية» لابن نباتة المصري (ت٧٦٨هـ)، و«فرائد الأشعار في مدح النبي المختار» لابن العطار الدنيسري (ت٧٩٤هـ)، و«شفاء الكليم بمدح النبي الكريم» لابن عربشاه الدمشقي (ت٩٠١هـ).

ومن أشهر من يمثل هذه الظاهرة في تلك الفترة البوصيري[١]، وله جملة قصائد أشهرها (البردة)[٢] المعروفة باسم (الكواكب الدُّرّية في مدح خير البرية) وتقع في مئة واثنين وستين بيتًا، ومطلعها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِـذي سَلَمِ مَزَجْتَ دَمْعًا جَرى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ[٣]

ثم يعرض البوصيري بغيته بمدح الرسول ﷺ فيتغنى بصفاته وسيادته وقيادته للعرب والعجم، وحاجة الناس إلى شفاعته، فيقول:

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـــ ـنِ وَالفَريقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ
هُوَ الحَبيبُ الَّذي تُرْجى شَفاعَتُهُ لِكُلِّ هَـوْلٍ مِنَ الأَهْـوالِ مُقْتَحَـمِ
يَجُرُّ بَحْرَ خَميسٍ فَوْقَ سابِـحَةٍ يَرْمي بِـمَـوْجٍ مِنَ الأَبْطالِ مُلْتَطِـمِ
ومَـنْ تَكُـنْ بِرَسولِ اللهِ نُـصرَتُهُ إِنْ تَلْقَـهُ الأُسْدُ في آجامِها تَجِـمِ[٤]

وقد بيّن الشاب الظريف[٥] منزلة الرسول ﷺ الرفيعة، والتوسل إليه وطلب الشفاعة منه للنجاة من عذاب النار، فالآمال معقودة عليه، فقال:

ما كانَ يَرْضى لَكَ الرَّحْمنُ مَنْزِلَةً يا أَشْرَفَ الخَلْقِ إِلّا أَشْرَفَ الرُّتَبِ
لي مِنْ ذُنوبِيَ ذَنْبٌ وافِرٌ فَعَسى شَفاعَةٌ مِنْكَ تُنْجيني مِنَ اللَّهَبِ
جَعَلْتُ حُبَّكَ لي ذُخْرًا وَمُعْتَمَدًا فَكانَ لي ناظِرًا مِنْ ناظِرِ النُّوَبِ
إِلَيْكَ وَجَّهْتُ آمالي فَلا حُجِبَتْ عَنْ بابِ جودِكَ إِنَّ المَوْتَ في الحُجُبِ

ووصف الشعراء معجزاته، لا سيّما حادثة الإسراء والمعراج وصفًا مفصلًا دقيقًا، يقول أبو زكريا يحيى بن يوسف الصَّرْصَري[٦] في قصيدة تجاوز عدد أبياتها ثمانمئة وخمسين بيتًا:

سُبْحانَ ذي الجَبَروتِ وَالبُرهـانِ وَالعِزِّ وَالمَلَكوتِ وَالسُّلْطـانِ

---

(١) محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري، ولد في بوصير بمصر، اشتهر بمدائحه النبوية، (ت٦٩٦هـ).

(٢) البردة: ذكر مترجمو البوصيري أنه أنشأ قصيدة البردة لما أصيب بالفالج، وأنه رأى في منامه النبي ﷺ فأنشده إياها، وتوسل بها واستغاث، فألقى عليه النبي ﷺ بردته، كما ألقاها على كعب بن زهير رضي الله عنه يقظة، فشفي البوصيري من مرضه.

(٣) ذي سلم: موضع بين مكة والمدينة.

(٤) تجم: تسكت.

(٥) هو محمد بن سليمان التلمساني، ولد في القاهرة، لقب لرقته وطرافة شعره بالشاب الظريف؛ فغلب عليه هذا اللقب وعرف به، (ت ٦٨٨هـ).

(٦) الشيخ أبو زكريا يحيى بن يوسف الصّرصري، صاحب كتاب معارج الأنوار في سيرة النبي المختار، (ت٦٥٦هـ).

أَسْرى مِنَ البَيْتِ الحَرامِ بِهِ إِلى أَقْصى المَساجِدِ لَيْسَ بِالوَسْنانِ
فَعَلا البُراقَ وَكانَ أَشْرَفَ مَرْكَبٍ يَطْوي القِفارَ بِسُرْعَةِ الطَّيَرانِ

وذكروا غزواته وفضيلة جده عبد المطلب، وأشاروا إلى ذكره والثناء عليه في الكتب السماوية، يقول ابن الساعاتي (معارضًا قصيدة كَعب بن زهير) :

بَثَّتْ نُبُوَّتَهُ الأَخْبارُ إِذْ نَطَقَتْ فَحَدَّثَتْ عَنْهُ تَوْراةٌ وَإِنْجيلُ
فَضيلَةٌ عُرِفَتْ مِنْ عَبْدِ مُطَّلِبٍ وَالقَوْمُ صَرْعى كَعَصْفٍ وَهْوَ مَأْكولُ
رَدَّتْ أَعاديهِ في بَدْرٍ وَيَوْمَئِذٍ جِيادُهُ القُبُّ وَالطَّيْرُ الأَبابيلُ(١)

الخصائص الفنية لشعر المديح النبوي

بمدارسة النماذج الشعرية السابقة، نجد أن شعر المديح النبوي:

١- تبرز فيه العاطفة وتدفق المشاعر تجاه الرسول ﷺ عند الحديث عن شمائله ومعجزاته وطلب شفاعته.

٢- يتميز بوحدة الموضوع وطول القصيدة.

٣- تأثرت مضامينه بالقرآن الكريم، ومن ذلك الحديث عن حادثة الإسراء والمعراج، وذكر النبي ﷺ في الكتب السماوية، والطير الأبابيل، وبالحديث النبوي الشريف عند ذكر البراق في حادثة الإسراء.

٤- يشيع فيه فن المعارضات، مثال ذلك قصيدة ابن الساعاتي التي عارض فيها كعب بن زهير في قصيدته التي مطلعها:

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليَوْمَ مَتبولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبولُ

---

(١) الجياد القُبّ: الضّوامر، مفرده: الأقبُّ .

الأسئلة

١– علل تسمية شعر المدائح النبوية مدحًا وليس رثاءً.

٢– اذكر ثلاثة من الكتب التي ألفت في المديح النبوي، ومؤلفيها.

٣– لِمَ ازدهر شعر المدائح النبوية في العصرين: الأيوبي والمملوكي؟

٤– اذكر موضوعين من موضوعات شعر المدائح، ومثّل عليهما ببعض الشواهد الشعرية.

٥– مثِّل على خصيصة شيوع المعارضات الشعرية في شعر المديح النبوي.

٦– في رأيك، لم أكثر شعراء المدائح النبوية من معارضة قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ.

٧– استنتج الخصيصة الفنية لشعر المدائح النبوية في كلٍّ مما يأتي:

أ – هُوَ البَشيرُ النَّذيرُ العَدْلُ شاهِدُهُ وَلِلشَّهادَةِ تَجْريحٌ وَتَعْديلُ

ب– أَسْرى مِنَ البَيْتِ الحَرامِ بِهِ إِلى أَقْصى المَساجِدِ لَيْسَ بِالوْسْنانِ

٨– في رأيك:

أ – لِمَ تعدّ قصيدة البردة للبوصيري من أشهر قصائد المدائح النبوية؟

ب– لِمَ تمتاز قصائد المدائح النبوية بطولها؟

النشاط

- وازن بين «البردة» للبوصيري و«نهج البردة» لأحمد شوقي، مبينًا بعض أوجه التشابه والاختلاف.

قضايا من النثر في العصرين: الأيوبي والمملوكي

شهد العصران: الأيوبيّ والمملوكيّ ازدهارًا في فنون النثر المختلفة، فانتشرت إلى جانب الفنون النثريّة المعروفة، كالرّسائل والخطابة، فنونٌ نثريّةٌ أخرى؛ مثل أدب الرّحلات، والتأليف الموسوعيّ. وفي ما يأتي تناولٌ لبعض هذه الفنون.

أولًا: أدب الرحلات

يعد أدب الرحلات الذي انتشر في العصرين: الأيوبي والمملوكيّ من أبرز الفنون الأدبية النثرية وأمتعها وأقربها إلى القرّاء؛ لالتصاق هذا الفن بواقع النّاس وحياتهم، وامتزاجه بفنون أخرى كالقصص، والمذكرات، والتراث الشعبي، واليوميات.

وقد تولّى كتابة هذا النوع من الأدب رحّالةٌ متنوعون في ثقافاتهم وعلومهم، ممن استهوتهم المغامرة والسفر والترحال؛ ما أدّى إلى اختلاف اهتماماتهم في ما ينقلون من مشاهداتهم في البلاد التي جابوها؛ فبعضهم نقل عادات من تحدّث عنهم، وتقاليدهم، وثقافاتهم، ولغاتهم، وطرق عيشهم، ومعتقداتهم الفكرية والمذهبية، وبعضهم اعتنى بنقل جغرافية البلاد التي ارتحل إليها، وآثارها، ومُناخها، وتوزيع سكّانها وطبيعتهم، ومعالم حضارتها.

وبذلك فأدب الرّحلات ذو قيمة علمية كبيرة كونه وثائق تاريخية وجغرافية واجتماعية وثقافية يعتمد عليها لمعرفة أحوال البلاد المكانية والسكانية.ويعد ابن جبير وابن بطوطة من أشهر الرحّالة في العصرين: الأيوبي والمملوكي.

١- ابن جبير (ت ٦١٤هـ)

هو محمد بن أحمد من بني ضمرة من كنانة المضرية العدنانية. درس علوم الدين وشغف بها، وبرزت ميوله في علم الحساب والعلوم اللغويّة والأدبية، وأظهر مواهب شعرية ونثرية مكّنته من العمل كاتبًا.

دوّن ابن جبير خلال رحلته في القرن السادس الهجري مشاهداته وملاحظاته في يوميات سميت باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، وصف فيها البيت الحرام والمسجد

النبوي، ودمشق، والعراق، وغيرها من البلدان والمدن، كما وصف الأسواق والأسوار والحصون والمشافي، والأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لساكني البلدان التي مرّ بها، ودرجة الاستقرار فيها، كما وصفت رحلاته.

يصف ابن جبير رحلته البحرية إلى صقلية، فيقول:

«وأصبحنا يوم الأحد المذكور والهول يزيد، والبحرُ قد هاج هائجه، وماج مائجه (١)، فرمى بموجٍ كالجبال يصدم المركبَ صَدَمات يتقلَّب لها على عِظَمِهِ تقلُّب الغصن الرّطيب، وكان كالسّور علوًّا فيرتفع له الموج ارتفاعًا يرمي في وسطه بشآبيب (٢) كالوابل المنسكب. فلمّا جَنَّ الليلُ اشتدَّ تلاطمه، وصكَّت الآذانَ غماغمه (٣)، واستشرى عُصوفُ الريح. فحُطَّتِ الشُّرعُ... ووقع اليأس من الدّنيا، وودعنا الحياة بسلام، وجاءنا الموج من كلّ مكان، وظننّا أنّا قد أُحيط بنا،... فاستسلمنا للقدر، وتجرعنا غُصص هذا الكَدر، وقلنا:

سَيَكونُ الَّذي قُضيْ سَخِطَ العَبْدُ أَوْ رَضيْ»

٢- ابن بطُّوطة (ت ٧٧٩ هـ)

هو محمد بن عبد الله الطنجي، لقب بـأمير الرحالة المسلمين. خرج من طنجة سنة (٧٢٥هـ) فطاف قارتي: آسيا وأفريقيا وبعض بلدان قارة أوروبا. استغرقت رحلته ما يقارب الثلاثين عامًا.

دوّن أخبار رحلته في كتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» فوصف فيه البلدان التي زارها ومواقعها والمسافات بينها ومظاهر العمران فيها، وحكامها وعادات أهلها وألبستهم وألوانها وأشكالها وحيويتها ودلالتها، كما وصف الأطعمة وأنواعها وطريقة صناعتها.

وفي ما ذكر ابن بطُّوطة عن جزيرة سيلان (٤) أنه:

---

(١) ماج مائجه: اضطرب ماؤه وارتفع.

(٢) شآبيب: مفرها شؤبوب وهي الدّفعة من المطر.

(٣) الغماغم: الأصوات غير المبيَّنة .

(٤) جزيرة سيلان هو الاسم القديم لجمهورية سيريلانكا حاليًّا .

«يوجد الياقوت في جميع مواضعها، وهي متملَّكة، فيشتري الإنسان القطعة[1] منها، ويحفر عن الياقوت، فيجد أحجارًا بيضاء مشعبة، وهي التي يتكوّن الياقوت في أجوافها، فيعطيها الحكاكين، فيحكّونها حتّى تنفلق عن أحجار الياقوت، فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق.... وجميع النّساء بجزيرة سيلان لهنَّ القلائد من الياقوت الملوَّن، ويجعلنه في أيديهنّ وأرجلهنّ عوضًا من الأسورَةِ والخلاخيل... ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه، كلٌّ حجر أعظم من بيضة الدّجاج».

ووصف ابن بطوطة نهر النّيل فقال:

«ونيل مصر يفضل أنهار الأرض عذوبة مذاق واتّساع قطر وعظم منفعة. والمدن والقرى بضفتيه منتظمة، ليس في المعمور مثلها. ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النّيل. وليس في الأرض نهر يسمّى بحرًا غيره. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [2] فسمّاه يمًّا وهو البحر».

الخصائص الفنيّة لأدب الرّحلات

من أهمّ الخصائص الفنيّة لأدب الرّحلات أنّه:

١- يقتبس من الآيات القرآنيّة أو الأحاديث النبويّة الشريفة أو الأشعار، مثل ما رود في نص ابن جبير: « وجاءنا الموج من كلّ مكان، وظننا أنّا قد أُحيط بنا».

٢- يعتني بالوصف وبذكر التفاصيل، ومثال ذلك وصف ابن بطوطة الياقوت في جزيرة سيلان، وفي وصف ابن جبير رحلته إلى صقلية عن طريق البحر.

٣- يميل إلى العبارات القصيرة المتناغمة ذات الإيقاع الموسيقيّ. ومثال ذلك: «فلمّا جَنَّ الليلُ اشتدّ تلاطمه، وصكّت الآذانَ غماغمه، واستشرى عُصوفُ الريح».

---

(١) المقصود القطعة من الأرض .

(٢) سورة القصص، الآية (٧).

الأسئلة

١– انسب الكتابين الآتيين إلى مؤلفيهما:

أ – تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

ب– تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار.

٢– علل ما يأتي:

أ – يعد أدب الرحلات واحدًا من أمتع الفنون النثرية.

ب– اختلاف اهتمامات الرحالة في رحلاتهم.

جـ– لأدب الرحلات قيمة علمية كبيرة.

٣– في رأيك، لِمَ لقّب ابن بطوطة أمير الرحالة المسلمين؟

٤– اقرأ النصين الآتيين ثمّ أجب عما يليهما:

مما جاء في وصف ابن جبير لدمشق:

«دمشق جنّة المَشرِقِ، ومطلعُ حُسنهِ المُشرِقِ، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها [١]، قد تحلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين... منها ربوةٌ ذاتُ قرارٍ ومَعينٍ وماءٍ سلسبيل، تنساب مذانبُهُ انسياب الأراقم بكلّ سبيل،... قد سَمَتْ أرضَها كثرةُ الماءِ حتّى اشتاقت الظِّماءَ، فتكاد تناديك بها لاصِمُ الصِّلابِ [٢]: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾[٣]».

ويصف البغدادي [٤] المجاعة التي حلّت بمصر سنة (٥٩٧هـ)، فيقول:

«ودخلت سنةُ سبعٍ مفترسةً أسبابَ الحياة، وقد يئس النّاسُ من زيادة النِّيل، وارتفعت الأسعار، وأقحطت البلادُ، وأشعر أهلها البِلا [٥]،... وانضوى أهل السَّواد والرّيف إلى أمهات البلاد، وانجلى كثير منهم إلى الشّام والمغرب والحجاز

---

(١) اجتليناها: رأيناها .

(٢) لاصم الصّلاب: الصخور الصلبة .

(٣) سورة ص، الآية (٤٢).

(٤) عبد اللطيف بن يوسف البغدادي، الملقب بموفق الدين، أحد الرحالة المسلمين، له كتاب " الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهَدة والحوادث المعاينة في مصر "، (ت ٦٢٩هـ).

(٥) أشعر أهلها البِلا: أصابتهم المصيبة ولازمتهم.

واليمن، وتفرَّقوا في البلاد،...ومُزِّقوا كلَّ مُمزَّق، ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلقٌ عظيمٌ،... ووقع المرض والمَوَتانُ، واشتدّ بالفقراء الجوعُ حتّى أكلوا الميتات والجِيَفَ».

أ – وازن بين النصين من حيث: التأثر بالقرآن الكريم، واللغة، والجناس والسجع.

ب– من خلال النماذج التي درست، لمن تفضل القراءة: لابن بطوطة أم لابن جبير أم للبغدادي؟ بين سبب ذلك.

النشاط

- عُد إلى الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) واكتب تقريرًا عن عبد اللطيف البغدادي وكتابه «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في مصر»، ثمّ اعرض ذلك أمام زملائك.

ثانيًا: فن الرسائل في العصرين: الأيوبي والمملوكي

ازدهر فن الرسائل في العصرين: الأيوبي والمملوكي ازدهارًا ملحوظًا، بسبب عوامل: سياسية، واجتماعية، وعلمية.

من العوامل السياسية

– كثرة دواوين الدّولة التي اقتضت الحاجة إلى كتّاب الرسائل لتسيير أمورها.

– حاجة الحياة السياسية الرسمية التي عاشها السلاطين والأمراء والجند من سلم وحرب إلى استخدام الرسائل لإصدار أوامر التعيين أو العزل أو توطيد العلاقات مع البلدان الأخرى وتحسين السياسة الخارجية...إلخ.

من العوامل الاجتماعية

– علوّ منزلة كُتّاب الرسائل عند السلاطين والملوك، حيث قاربت منزلتهم منزلة الوزراء وكبار القضاة.

– اتخاذ الرسائل وسيلة تواصل اجتماعي، فكانت تستخدم في التهنئة والمدح والتعزية والمواساة والشكر، وغير ذلك.

من العوامل العلمية

- ديوان الإنشاء [١] وما وضع من شروط على من يريد أن يتخذ الكتابة صنعة له، مع كثرة المكاتبات التي كانت تخرج منه أو تعود إليه من مبايعات وعهود، وغير ذلك.
- رغبة الكُتّاب في إظهار ثقافتهم وبراعتهم في الكتابة في فنون النثر المختلفة ومنها الرّسائل.

ومن أشهر كتّاب الرسائل في هذين العصرين: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني[٢] صاحب كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر في ذكر شعراء العصر»، ومحيي الدين بن عبد الظاهر، وعلاء الدين بن غانم. ونتناول في ما يأتي اثنين ممن يمثلون العصرين.

١- القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ)

هو أبو علي عبد الرحيم بن علي البيساني. أطلقت عليه ألقاب عدة منها: «محيي الدين» و«مجير الدين» و«القاضي الفاضل». درس العلوم الشرعيّة وديوان الحماسة، وتعلّم فنّ الكتابة، وعمل في ديوان الإنشاء زمن صلاح الدّين الأيوبيّ.

سار كتّاب الرسائل في عصره على طريقته في الكتابة بوصفه أحد أهم أعمدة كُتّاب هذا الفنّ؛ فكانت رسائله وطريقته في الكتابة نهج الهداية لكُتّاب العصرين: الأيوبي والمملوكي، ومحفزة لهم على الإبداع.

وفي ما يأتي نموذج لرسائله الديوانية التي كتبها في فتح بيت المقدس على لسان صلاح الدّين الأيوبي موجهة إلى الخليفة العباسيّ النّاصر لدين الله:

«...، ولمّا لم يبقَ إلا القدسُ، وقد اجتمع إليها كلُّ شريدٍ منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كلُّ قريبٍ منهم وبعيد؛ ظنّوا أنّها من اللهِ مانعتُهم،... فلمّا نازلها الخادم [٣] رأى بلدًا كبلاد، وجمعًا كيوم التناد، وعزائمَ قد تألّبت على الموت فنزلت بعَرْصَتِهِ،... فزاول [٤] البلد من

---

(١) ديوان الإنشاء: أحد أهم مكوّنات الجهاز الإداري في الدولة، يعنى بتنظيم العلاقات الخارجية للدولة، كانت تحرّر فيه الكتب التي يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء.

(٢) أبو عبدالله بن أبي الفرج الأصفهاني، عمل في ديوان الإنشاء لصلاح الدين الأيوبي، كان ذكيًا وقّاد الخاطر، بليغ الكتابة، كثير القول، (ت٥٩٧هـ).

(٣) المقصود صلاح الدين الأيوبي.

(٤) زاول: باشر وقصد.

جانبٍ فإذا أوديةٌ عميقةٌ، ولُجَجٌ (١) وَعِرَةٌ غريقةٌ، وسورٌ قد انعطف عَطْفَ السِّوارِ، وأبْرِجَةٌ قد نزلت مكانَ الواسِطَةِ من عِقدِ الدّارِ، فعَدلَ إلى جهةٍ أخرى كان للمطامعِ عليها مُعَرَّجٌ(٢)، وللخيلِ فيها متولَّجٌ (٣)، فنزل عليها، وأحاط بها، وقَرُبَ منها، وضُرِبَت خيمتُه بحيث ينالُه السّلاحُ بأطرافِه، ويزاحمُه السّورُ بأكنافه (٤)، وقابلها، ثمّ قاتلها، ونزلها وبرز إليها ثمّ بارزها، وحاجزها ثمّ ناجزها (٥)، فضمَّها ضمّةً ارتقب بعدها الفتحَ، وصدعَ أهلَها فإذا هم لا يصبرون على عبوديةِ الجِدِّ عن عِتْقِ الصَّفحِ، فراسلوه ببذلِ قطيعةٍ إلى مدّةٍ، وقصدوا نَظِرَةً من شِدّةٍ، وانتظارًا لنَجْدَةٍ، فعرفهم في لحنِ القولِ، وأجابهم بلسانِ الطَّولِ، وقدَّمَ المَنْجنيقاتِ التي تتولّى عقوبات الحصونِ عِصِيّها وحِبالُها، وأوترَ لهم قِسِيّها التي تضرِبُ فلا تفارقها سهامُها، ولا يفارقُ سهامَها نصالُها، فصافَحَتِ السُّور فإذا سهمُها في ثنايا شرفاتها سواكٌ، وقدَّم النَّصرُ نَسْرًا من المَنْجَنيقِ يُخْلِدُ إخلادَه إلى الأرضِ، ويعلو عُلُوَّه إلى السِّماك، فشَجَّ مَرادِعَ أَبْرُجِها (٦)، وأسمعَ صوتَ عجيجها، ورفع ستارَ عَجاجِها (٧)، فأخلى السُّورَ من السَّيّارةِ، والحربَ من النَّظّارة، فأمكن النَّقابُ أن يسفرَ للحربِ النِّقابَ، وأن يُعيدَ الحجرَ إلى سيرته من التُّرابِ».

٢- محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢ هـ)

هو القاضي محيي الدين أبو الفضل، ولد في بيت علم ودين. درس التاريخ والسير والأدب، وبرع في الكتابة النثرية، وكثرت مؤلفاته، منها: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر»، و« تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور».

تولى ديوان الإنشاء في عهد الظّاهر بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف خليل. ومن رسائله رسالته

---

(١) لجج: مفردها لُجّة، معظم البحر وتردد أمواجه.

(٢) معرَّج: مقصِد.

(٣) متولَّج: مدخل.

(٤) الكنف: الجانب.

(٥) حاجزها: طالبها بالامتناع عن المخاصمة، ناجزها: قاتلها.

(٦) مرادع أبرجها: الأبراج التي فشلت في توفير الحماية للمحتمين بها.

(٧) العجيج: الصوت المرتفع والصياح، العجاج: الغبار.

التي كتبها في فتح المظفر قطز للشقيف [١] سنة (٦٦٦هـ) يصف فيها قوّة جيش العدو بالبسالة لتأكيد قيمة النّصر الذي أحرزه المسلمون، يقول:

«وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم، يقاتلون قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبِهم، فكمْ من شجاعٍ ألصقَ ظهرَه إلى ظهرِ صاحِبِهِ وحامى، وناضَلَ ورامى، وكم فيهم من شهمٍ ما سلَّم قوسه حتّى لم يبقَ في كِنانته سهمٌ، وذي سنٍّ [٢] طارحَ به فما طرحه حتّى تثلَّم، وذي سيف حادثه بالصِّقال [٣] فما جلى محادثةً حتّى تكلَّم، وأبانوا عن نفوسٍ في الحربِ أبيةٍ».

الخصائص الفنية للرسائل

ظهرت في النصّين السابقين الخصائص الفنية الآتية للرسائل:

١- تتأثر بالقرآن الكريم، كما ورد في رسالة القاضي الفاضل: «فعرفهم في لحنِ القولِ»، وفي رسالة ابن عبد الظاهر: « يقاتلون قيامًا وقعودًا وعلى جُنوبِهم».

٢- توثرخ الرسالة لأحداث العصر، فَتعدُّ سجلًّا تاريخيًّا، كما في رسالة القاضي الفاضل في فتح بيت المقدس.

٣- تكثر في الرسالتين المحسنات البديعية، كالجناس (فأمكن النَّقاب أن يسفر للحرب النّقاب)، والطباق (واعتصم بمنعتها كلُّ قريبٍ منهم وبعيد، يقاتلون قيامًا وقعودًا).

٤- تمتاز رسالة القاضي الفاضل بغرابة بعض الألفاظ مثل (السِّماك، مرادع، متولَّج، وغيرها)، وأما ابن عبد الظّاهر فقد مال إلى استخدام الألفاظ السهلة في رسالته (فكمْ من شجاعٍ ألصقَ ظهرَه إلى ظهرِ صاحِبِهِ وحامى، وناضَلَ ورامى).

---

(١) الشقيف: حصن مرتفع في لبنان يُصعد إليه من قرية أرنون.

(٢) ذي سنّ: المقصود الرمح.

(٣) الصّقال: الصقل، من صقل الشيء إذا جلاه وأظهره ولمّعه.

الأسئلة

١- وضّح العوامل العلمية التي أسهمت في ازدهار فن الرّسائل في العصرين: الأيوبي والمملوكي.

٢- لم عُدَّ القاضي الفاضل أهم أعمدة كتّاب الرسائل في العصرين: الأيوبي والمملوكي؟

٣- وازن بين الرسالتين الآتيتين من حيث الخصائص الفنية للرسالة في العصرين: الأيوبي والمملوكي:

وصف علاء الدّين بن غانم [١] في رسالة له إحدى القلاع:

«ذاتُ أوديةٍ ومحاجر [٢] لا تراها العيون لبعد مرماها إلا شزرًا، ولا ينظرُ ساكنها العدد الكثير إلانزرًا، ولا يظنُّ ناظرها إلا أنّها طالعةٌ بين النُّجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفرات خندقٌ يحفُّها كالبحر، إلا أنّ ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ [٣]».

وردَّ الناصر قلاوون على محمود غازان الذي طلب منه الصلح برسالة منها:

«من سلَّ سيف البغي قتل به، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [٤]، فيرسَلُ إلينا من خواصّ دولتك رجل يكون عندكم ممن إذا قطع بأمر وقفتم عنده».

---

(١) علي بن محمد بن غانم الملقب بعلاء الدين، (ت ٧٣٧هـ).

(٢) محاجر: مفردها محجر، وهو المكان في الجبل يقطع منه الحجارة.

(٣) سورة الفرقان، الآية (٥٣).

(٤) سورة فاطر، الآية (٤٣).

ثالثًا: الخطابة في العصرين: الأيوبي والمملوكي

يُعدُّ فنُّ الخطابة في العصرين: الأيوبي والمملوكي من أهمّ الفنون الأدبية؛ فقد أسهم في الدّفاع عن القيم الفاضلة، وإقناع الجماهير بآراء وأفكار سياسية. أسهمت بعض العوامل في تنشيط هذا الفنِّ وازدهاره، ووفرت للخطباء مخزونًا كبيرًا من المعاني والأفكار. ومن هذه العوامل:

١- نشاط حركة بناء المساجد والزوايا والرُّبُط (١).

٢- تقريب السلاطين للخطباء ورفع منزلتهم.

٣- توافر دواعي الخطابة ومحفزاتها، كالغزو الصليبي والغزو المغولي، والظروف السياسية والعسكرية التي عملت على ازدهار الخطابة ولا سيما الخطابة السياسية والدينية. ويعد ابن الزكي أشهر خطباء العصرين.

محيي الدّين ابن الزكي (ت ٥٥٨ هـ)

هو أبو المعالي محمد القرشي، الملقب بمحيي الدين، المعروف بابن زكي الدّين، فقيه خطيب أديب، حسن الإنشاء، كانت له منزلة رفيعة عند السلطان صلاح الدين الأيوبي.

شهد فتح بيت المقدس فكان أوّل من خطب بالمسجد الأقصى في الجمعة الأولى بعد تحريره، وتعدّ هذه الخطبة أنموذجًا للخُطب الدّينيّة. وفي ما يأتي بعض منها:

«أيها النّاس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدَّرجةُ العليا؛ لما يسَّرهُ اللهُ على أيديكم من استرداد هذه الضّالة من الأمّة الضّالة، وردّها إلى مقرّها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مئة عامٍ، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يُرفعَ ويذكرَ فيه اسمه،... فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمّد ﷺ، وقبلتكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء، ومَقصِد الأولياء، ومَدْفنُ الرُّسل، ومَهبِط الوحي، ومنزِلٌ به ينزلُ الأمر والنّهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الأقصى الذي صلّى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقرَّبين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم، وروحه عيسى الذي كرَّمه برسالته

---

(١) ملاجىء الفقراء من الصوفية.

وشرَّفه بنبوَّته، ولم يزحزحه عن رُتبَةِ عبوديته، فقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾[1]».

الخصائص الفنية لأسلوب ابن الزكي

من خلال دراسة الخطبة السّابقة يظهر أنّ الخطبة الدينية:

١- تبرز العاطفة الدينية فيها خاصة عند التمثل بالقرآن الكريم.

٢- تتأنق في اختيار الألفاظ الواضحة ذات المعاني السهلة.

٣- توظف الصور البيانية والمحسنات البديعية كالسجع والجناس ما يضفي على الخطبة جرسًا موسيقيًّا، ومثال السجع ما ورد في العبارات: «وهو مقرُّ الأنبياء، ومَقصِد الأولياء، ومَهبِط الوحي، ومنزِلُ به ينزلُ الأمر والنّهي». أما الجناس فمثل (استردادِ هذه الضّالة من الأمّة الضّالة).

الأسئلة

١- بين أهمية الخطابة في العصرين: الأيوبي والمملوكي.

٢- علّل: ازدهار الخطب السياسية والدينية في العصرين: الأيوبي والمملوكي.

٣- اقرأ النص الآتي من خطبة لابن منير الإسكندراني (ت ٦٨٣هـ)، ألقاها بعدما ملك التتار الشام سنة (٦٥٨هـ)، ثم استخرج منها ما يناسب من الخصائص الفنية للخطبة:

((الحمد لله الذي يرحم العيون إذا دمعت، والقلوب إذا خشعت،... الموجود إذا الأسباب انقطعت، المقصود إذا الأبواب امتنعت،... فسبحان من وسعت رحمته كل شيء، وحقٌّ لها إذا وسِعت، وسَعت إلى طاعته السماوات والأرض حين قال ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾[2] فأطاعت وسمعت...، أيّها الناس، خافوا الله تأمنوا في ضمان وعده الوفيّ، ولا تخافوا الخلق وإن كثروا؛ فإن الخوف منهم شِركٌ خفِيّ))

(١) سورة النساء، الآية (١٧٣).

(٢) سورة فصلت، الآية (١١).

رابعًا: التأليف الموسوعي في العصرين: الأيوبي والمملوكي

الموسوعة كتاب يجمع معلومات شتّى من العلوم والمعارف في مختلف ميادين المعرفة، أو ميدان منها، مرتبة ترتيبًا هجائيًّا. وتجدر الإشارة إلى أنّ بداية التأليف الموسوعي ظهر في العصر العباسيّ في القرن الثالث الهجري فظهرت بعض المصنّفات ذات الاتّجاه الموسوعي مثل كتاب «الحيوان» للجاحظ، و«الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وغيرهما.

تضافرت مجموعة من العوامل كان لها تأثير في نشاط التأليف الموسوعي في هذين العصرين، منها:

١- الغزو الصليبي والغزو المغولي وما أحدثاه من تدمير ثقافي وفكري لمقدرات الأمة الإسلامية في العراق والشام، الأمر الذي ألهب غيرة علماء الأمة على حضارتها وتاريخها وتراثها، فحثت الخطى وألفت الموسوعات لتعويض ما خُسِر.

٢- ديوان الإنشاء وما يتطلبه من موسوعية المعرفة لدى كل من يعمل فيه. فقد وجب على العاملين فيه أن يكونوا على دراية بالعلوم الشرعية والتاريخ والأدب... إلخ، ولا عجب أنّ أشهر كتاب الموسوعات كانوا رؤساء لهذا الدّيوان أو كُتّابًا فيه كالقلقشندي، وصلاح الدّين الصفدي، والمقريزي وغيرهم.

٣- انتشار المكتبات الضخمة التي أُوقِفت لخدمة طلبة العلم وحوت نفائس الكتب والمخطوطات؛ الأمر الذي أتاح المجال لتنوّع المعارف وكثرتها، ومن ثمّ التأليف الموسوعي.

٤- استقطاب مصر والشّام للعلماء المهاجرين من أقطار أخرى كالأندلس والهند والعراق وغيرها. ومن أمثلتهم ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، وابن البيطار المالكي أشهر علماء العرب في الصيدلة...وغيرهما. وقد كان لهذا التّمازج كبير الأثر في قيام نهضة علمية وأدبية متميزة في مصر والشام على وجه الخصوص.

من أشهر الموسوعات في العصرين: الأيوبي والمملوكي

كان للموسوعات محل واسع في هذين العصرين، وقد أكبَّ على هذا النّوع من الكتابة كثيرون. ونقف على بعض الموسوعات وقفة إيجاز تشير إلى تلك الكنوز الأدبية والعلمية والمعرفية التي انصرف الأدباء والعلماء إلى جمعها في كثير من الصبر والتتبّع والجهد:

أ – **الوافي بالوفيات** لصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ): وهو من أوسع كتب التراجم، يقع في نحو ثلاثين مجلدًا.

ب– **غرر الخصائص الواضحة وعُرر النقائص الفاضحة** لجمال الدّين الوطواط (ت ٧١٨هـ): وهو كتاب يقع في ستة عشر بابًا، يشتمل كلّ باب منها على ستّة فصول ضمَّنها مختارات من النثر والشّعر.

جـ– **نهاية الأرب في فنون الأدب** لشهاب الدّين النويريّ (ت ٧٣٣ هـ): وهي موسوعة تقع في ثلاثين مجلدًا قُسمت خمسة أقسام: السّماء والآثار العلوية، والأرض والمعالم السفلية، والإنسان وما يتعلّق به، والحيوان الصامت، والنبات، والتاريخ من بدء الخليقة إلى عصره.

د – **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** لابن فضل الله العمريّ (ت ٧٤٩هـ): وهو كتاب يقع في أكثر من عشرين جزءًا حافلة بالفوائد القيمة والمعلومات الواسعة في التّراجم والتّاريخ والجغرافية.

هـ – **سِيَر أعلام النبلاء** للذَّهبيّ (ت ٧٤٨هـ): وهو كتاب ضخم يقع في ثلاثين مجلدًا في تراجم الرّجال والأعلام.

و – **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** لأبي العباس القلقشنديّ (ت٨٢١هـ): وهو كتاب ضخم يحتوي مقدمة وعشر مقالات في فضل الكتابة وصفات الكتّاب، والتعريف بديوان الإنشاء وقوانينه، وتاريخ الكتابة وتطوراتها، وأنواع المناصب من رجال السّيف والقلم...وغير ذلك.

ز – **نسيم الصَّبا** لبدر الدّين الحلبيّ (ت ٧٧٩هـ): وهو كتاب يقع في نحو ثلاثين فصلًا في وصف الطبيعة والأخلاق والأدب وغيرها.

الأسئلة

١– عرّف الموسوعة.

٢– بين دور كل مما يأتي في ازدهار الموسوعات في العصر المملوكي:

أ – ديوان الإنشاء.

ب– الغزو الصليبي والغزو المغولي.

جـ– هجرة العلماء.

٣– انسب الكتب الآتية إلى مؤلفيها:

صبح الأعشى في صناعة الإنشا، سير أعلام النبلاء، الوافي بالوفيات.

٤– صنّف الموسوعات التي درستها إلى:

أ – موسوعات التراجم.

ب– موسوعات الأدب.

جـ– موسوعات الطبيعة والجغرافيا والتاريخ.

الأدب في العصر العثماني

حكمت الدولة العثمانية البلاد العربية نحو أربعة قرون، شُغل فيها حكّامها بإرساء دعائم الأمن، وإحكام سيطرة الدولة، وقمع حركات التمرد، وفتح أوروبا الشرقية، وكان ذلك على حساب المرافق العامة والمشروعات الإصلاحية، وبدا واضحًا ضعف الأدب العربي في العصر العثماني، وثمة عوامل تقف وراء هذا الضعف من أبرزها:

١- عدم معرفة كثير من السلاطين العثمانيين باللغة العربية وعدم تذوقهم لأدبها، وإلغاؤهم ديوان الإنشاء؛ فتراجعت مكانة الشعراء والكتّاب لديهم، ما أدى إلى جمود قرائحهم وانحطاط أساليبهم.

٢- إغلاق المدارس في البلاد العربية، واستقطاب معظم العلماء إلى العاصمة الجديدة (الأستانة)؛ فأهمل التعليم وعمّ الجهل والأمّيّة معظم البلاد العربية، وشاعت الخرافات فيها على حساب الثقافة العربية الإسلامية.

٣- فرض اللغة التركية على البلاد العربية حين أصبحت هي اللغة الرسمية للدولة؛ فانتشرت اللهجة العامية، فذهب إبداع الناس في اللغة العربية وتراجع حضورها.

وكان من نتائج ذلك في الشعر فساد ملكة اللسان؛ فأصبح الشعر ركيك الأسلوب، وبسيط المعاني، وضعيف العاطفة والخيال، وفقير الأغراض يميل إلى التقليد، ويغلب عليه السطحية، وغدا الشعراء ينظمون في الألغاز والأحاجي ، كقول الشاعر حسين بن أحمد الزيّات:

ما اسْمُ شَيْءٍ مِنَ النَّباتِ إذا ما زالَ حَرْفٌ مِنْهُ غَدا حَيوانا

وَبِتَصْحيفِ بَعْضِهِ فَهْوَ نارٌ وَتُرَوّى مِنْ بَعْضِهِ الظَّمْآنا؟

ويمكن القول بأن هذا العصر –على طوله– كان أضعف عصور الأدب العربي؛ غلب فيه الجمود على العقول، والتقليد على الإبداع، والصنعة اللفظية على الملكة الأدبية، والابتذال على الأساليب الرفيعة.

وأما النثر فقد ضعف أيضًا وانحطّ أسلوبه؛ نتيجة العوامل السابقة، فأصبح ما يكتب من نثر فقير المعاني، وكثير اللحن، وركيك الأسلوب، ويدنو من العامية.

ولكن في أواخر القرن الثامن عشر شهدت مصر نهضة علمية على يد محمد علي باشا الذي أنشأ

المدارس وجلب العلماء للتدريس في مصر، وأسس مدرسة طبية، وأوفد عشرات الطلاب إلى أوروبا، وأنشأ مطبعة بولاق، وفي عهده صدرت جريدة الوقائع المصرية. وفي بلاد الشام تم إنشاء بعض المدارس والجامعات التي أسهمت بصورة واضحة في نهوض التعليم، وأدى ذلك كما في مصرَ إلى تنشيط حركة الترجمة، والاطلاع على الآداب الأوروبية، وأسست الجمعيات، وأصدرت الصحف والمجلات. أسهم كل ذلك في النهضة الحديثة وظهور عدد من الرواد والأدباء الذين أرسوا دعائم تلك النهضة مثل رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وقاسم أمين وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمود سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم في مصر، وأحمد فارس الشدياق وعبد الرحمن الكواكبي وسليم البستاني ومارون النقاش وفرنسيس مرّاش وجبران خليل جبران في سورية ولبنان.